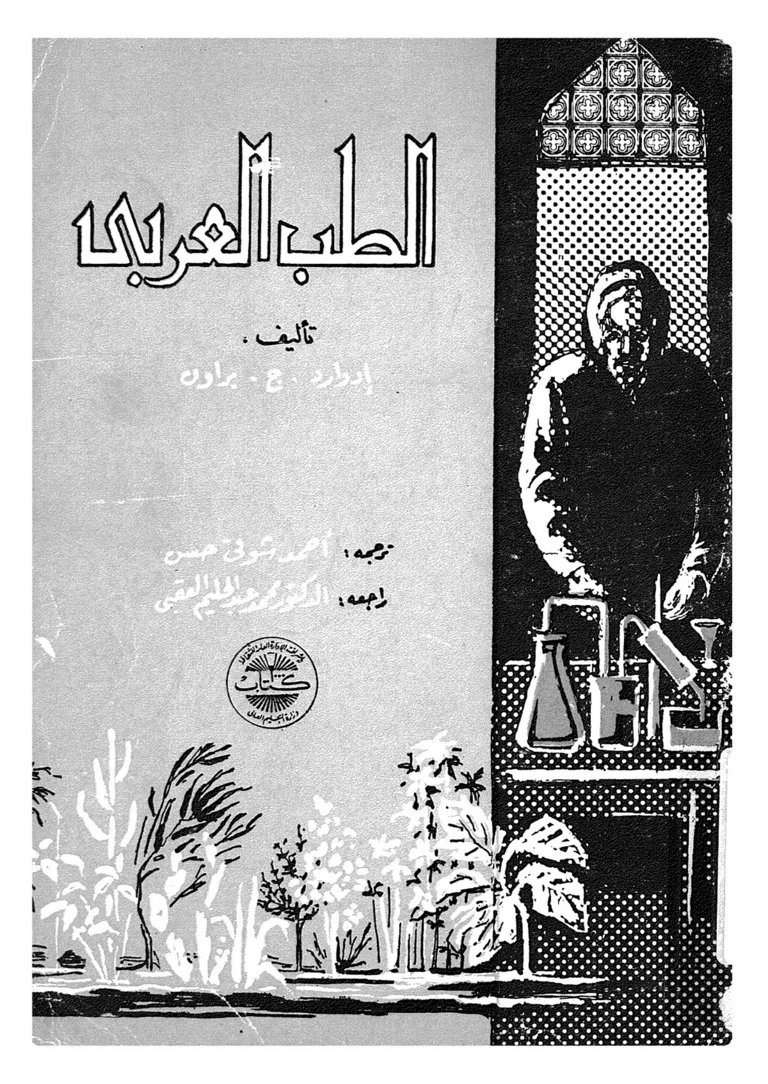

الطب العربي
تأليف :
إدوارد . ج . براون
ترجمه : أحمد شوقي حسن
راجعه : الدكتور محمد عبد الحليم العقبي
كتاب
وزارة التعليم العالي

الألف كتاب



بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
لجنة النشر العلمي بوزارة التعليم العالي

الألف كتاب — ٦٣٠

الطب العربي

تأليف
إدوارد . ج . براون

ترجمة
أحمد شوقي حسن

مراجعة
الدكتور محمد عبد الحليم العقبي

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٦

هذه ترجمة كتاب :

THE ARABIAN MEDICINE

تأليف :

E. G. BROWN

محتويات الكتاب

التعريف بالمؤلف

إدوارد جرانفيل براون — مستشرق بريطانى ولد عام ١٨٦٢ بمقاطعة جلوسترشير وتعلم فى كلية ترينتى ، ثم فى إيتن ، ودرس الطب واللغات الشرقية (العربية والفارسية) فى جامعة كامبردج وعين زميلا بها عام ١٨٨٧ وفى نفس العام منح .M. B من مستشفى القديس بارتلميو بلندن ، ولكنه لم يمارس الطب قط ، ورحل إلى بلاد فارس ١٨٨٧ — ١٨٨٨ . وبعدها عين أستاذاً للغة الفارسية فى كامبردج — وفى سنة ١٩٠٢ عين أستاذاً للغة العربية فى نفس الجامعة وبقى أستاذاً للغة العربية حتى أتاه الموت ١٩٢٦ .

اختير المؤلف زميلا بكلية الأطباء الملكية ١٩١١ .

كتب الدكتور براون عدة مؤلفات منها أحاديث سائح ١٨٩١ ، وسنة بين الإيرانيين ، وتاريخ الفرس حتى زمن الفردوسى ١٩٠٢ ، وثورة الفرس ١٩٠٥ ، والطب العربى ١٩٢١ .

والدكتور براون أحد كبار المستشرقين له ما لهم وعليه ما عليهم . ومما لا شك فيه أن كتابه هذا (الطب العربى) من خير الكتب ، عرض فيه ما عرض من تاريخ الطب العربى بأسلوب علمى ودراسة علمية سليمة ؛ إلا أنى أعتقد أنه تأثر

كثيراً بإقامته فى إيران ، فكتب بتوسع عن علماء أفاضل من أصل إيرانى — وترك من هم من أصل عربى ، ولم يذكر عنهم إلا قليلا رغم ما لهم من فضل على الطب فى ذلك الزمان ، مثل ابن نفيس ، وأبو القاسم الزهراوى وغيرهما .

كذلك استشهد فى سياق الحديث عن الطب بقصص من ألف ليلة وليلة وبأشعار ظنها قيلت للتهكم على الأطباء ، وأغلب الظن أنها قيلت استشهاداً على قدرة الله وإيماناً بالقضاء والقدر ، وأحب أن أكرر هنا ما ذكره المؤلف فى هامش الكتاب من أن الحارث بن كلدة طبيب النبى (صلى الله عليه وسلم) وابن خالته لم يقتله المسلمون ، وإنما الذى قتل حارث آخر له نفس الاسم (الدكتور التيجانى مؤلف كتاب تاريخ الطب العربى) .

وكم أود أن تكون ترجمة هـذا الكتاب حافزاً لأهل الشرق الأوسط والعرب جميعاً أن يكتبوا تاريخهم بأنفسهم حتى يعرفهم العالم وحتى يعرف الجيل الحاضر ما كان فى ماضيه من حسنات أضاءت العصر الوسيط . وإنى أعتقد أن العربى أقدر على فهم ما كتبه العربى من عشرة قرون وأدرى بروح اللغة فيخرج للناس صورة حقة عن تاريخ الشعب العربى العظيم .

دكتور / محمد عبد الحليم العقبى

إهـــداء

إلى الدكتور السير نورمان مور (دكتوراه فى الطب) رئيس كلية الطب الملكية .

أقدم هـذا الكتاب إعجاباً بعلمه الجامع ، واعترافاً بفضل تدريسه الملهم ، وتذكاراً لثلاث سنوات مثمرة قضيتها فى مستشفى سان بارتلوميو أنتفع بتوجيهه وإرشاده .

مقدمة

كان من حظى خلال السنوات العشر الماضية أن كنت مرتين موضع تكريم عام بعث فى نفسى أبلغ السرور وقرت له عينى رضا . ففى سنة ١٩١١ تم اختيارى زميلا بكلية الأطباء الملكية ، ثم فى فبراير سنة ١٩٢١ قدمت إلى بمناسبة عيد ميلادى التاسع والخمسين ، تحية مكتوبة (صحبتها هدايا جميلة) موقع عليها من عدد من الفارسيين الممثلين لأمتهم تعبيراً عن تقديرهم للخدمات التى قالوا متكرمين إنى قدمتها إلى لغتهم وآدابها .

وآمل أن يعتبر هذا الكتاب إقراراً منى بهذا الدين . فقد قصدت فيه من جهة إلى بيان الدور الذى قام به علماء الإسلام وأطباؤه ، وبخاصة الفارسيون منهم ، فى نقل علم الطب ، عبر العصور المظلمة ، من عصر انحطاط العلوم القديمة إلى عصر نهضة العلم الحديث .

وقصدت من جهة أخرى إلى توجيه أنظار محبى الأدب العربى والفارسى بمعناه الواسع إلى أنهم ربما يكونون قد أسرفوا فى الاهتمام بالشعراء والكتاب الذين يجيدون تنميق ما يؤلفون ، وحرموا الإنتاج الثقافى العلمى الذى يشكل فى الشرق الوسيط أكثر مما يشكل فى الغرب الحديث الخلفية لهذه الأعمال التى ، وإن كانت أخف وزناً إلا أنها أدق فناً . والواقع الذى حاولت توضيحه فى هذه

الصفحات هو أن من يكون على دراية بالمؤلفات الطبية التي كتبت في العصر الذي ألفت فيه القصيدة الفارسية الكبرى « المثنوى » التي نظمها جلال الدين رومى يكون أكثر تذوقاً لها وأكثر تقديراً .

وقبل أن أبدأ في إعداد محاضرات فتزباتريك المقدمة الآن إلى الجمهور استشرت سير كليفورد أولبت Clifford Allbutt أستاذ الطب بجامعة كامبردج بشأن خير الكتب في تاريخ ذلك العلم الذي ساوى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بينه وبين علم الأديان في حديث له معروف للمسلمين كافة[1] . ولم أستفد ، من بين الكتب العديدة التي أشار بها السير كليفورد والتي كثيراً ما أعارني إياها لدراستها دراسة مبدئية ، بقدر ما أفدت من كتاب تاريخ الطب Geschichte der Medizin (Stuttgart. 1908) الممتاز لمؤلفه الأستاذ ماكس نوبرجر Max Neuburger ومع أن الجزء الذي يعالج الطب العربي من هذا المؤلف يقع في ٨٦ صفحة فقط[2] ، فإنه غني إلى درجة عجيبة بالحقائق ، دقيق فيما يحتويه من التفاصيل ، ويمدنا بملخص للموضوع قابل للإفاضة عصي على التصحيح .

وقد رأيت من الأفضل نشر هذه المحاضرات الأربع في صورتها الأصلية التي ألقيت بها بدلا من أن أعيد صياغتها ووضعها في قالب جديد ، ولكن مسودات المطبعة قرأها عدد من أصدقائي وزملائي هم الدكتور ف.هـ. هـ جيلمار

(١) ونص الحديث « العلم علمان ، علم الأديان وعلم الأبدان » .

(٢) المجلد الأول ، القسم الثاني ، من صفحة ٤٢ إلى ٢٢٨ ، وهي المقابلة للصفحات من ٣٤٦ — ٣٩٤ من المجلد الأول من الترجمة الإنجليزية التي قام بها أرنست بلايفير Ernest Playfair (لندن ، ١٩١٠) .

دكتوراه فى الطب ، (Dr. F.H.H. Guillemard, M.D.) والدكتور أ. هـ. منز دكتوراه فى الآداب (Dr. E. H. Minns, Litt. D) ، وميرزا محمد خان القزوينى ، ومحمد إقبال ، فكان لهم جميعاً فضل الإشارة بكثير من التصويبات والآراء القيمة مما يجعلنى مديناً لهم . كما أننى مدين أعظم الدين للأستاذ أ. أ. بيفان (A.A. Bevan) ، والمحترم الأستاذ د. س. مارجليوث (Rev. Professor D.S. Margoliouth) بما قدماه إلى من مساعدة فى تحقيق النص وتصويب ترجمة الحالة الإكلينيكية التى سجلها الرازى والمدونة فى هذا الكتاب .

ولقد سرنى بصفة خاصة أن أجيز لى أن أهدى هذا المؤلف الصغير صراحة إلى السير نورمان (Sir Norman Moore) باعتباره ممثلا لتقاليد العلم والفطنة والإنسانية فى ألطف صورها ، وهى التقاليد الصالحة فى كل الأقطار والعصور فى مهنة الطب النبيلة العظيمة التى التقيت بتقاليدها الحية فى زمن الطلب هنا فى كمبردج وفى مستشفى سان بارتلوميو فعاد على هذا اللقاء بفائدة لا تنتهى ، كما سرنى أن أهديه ضمناً إلى الآخرين من أولئك الأساتذة الأعلام فى هذين المعهدين الشهيرين من معاهد العلوم الطبية اللذين حاولت جهدى أن أطبق ما عرف عنهما من طرائق البحث والعرض فى حقول أخرى من حقول المعرفة .

إدوارد . ج . براون

١٦ من أبريل سنة ١٩٢١



تنافس الأطباء

المحاضرة الأولى

إن اتساع الموضوع والوقت المحدود المتاح لى يفرضان على ألا أتناول فى هذه المحاضرات أى أمر غير جوهرى أو لا يمت بصلة للموضوع حتى ولو كان ذكره فى أية مناسبة أخرى شهياً إلى النفس . بيد أنى لا أستطيع أن أترك هذه الفرصة تمر وهى الفرصة الأولى التى سنحت لى منذ انتخابى عضواً بهذه الكلية ، دون أن أعبر علناً عن عميق إحساسى وامتنانى للشرف الذى كان تقديرى له عظيما بقدر ما كان غير متوقع . وإنى لأعرف تمام المعرفة أن السبب الذى أسبغ على من أجله هذا الشرف (وهو السبب الوحيد الذى كان من الممكن فى حالتى أن أمنح من أجله هــذا الشرف) هو أنه كان من المرغوب فيه نظراً للمركز الذى يحتله الطب العربى فى تاريخ مهنتنا ، أن يكون من بين الزملاء فى الكلية واحد يقدر على دراسة الطريقة العربية فى مصادرها الأصلية . والعرب يتداولون مثلا يضربونه للمرء أو للشىء يدخر لما له من فائدة فى ظرف خاص ، وأخيراً يحين الوقت الذى تمس فيه الحاجة إلى هــذا المدخر ، فيقولون « ما ادخرتك يادمعتى إلا لشدتى » ، فلما دعيت هذا العام لإلقاء محاضرات فتزبا تريك شعرت بأن هذا المثل قابل للتطبيق ، وأننى ، وإن كنت أشعر كذلك بأننى غير أهل لهــذا التشريف الجديد الذى أفاضت به علىّ الكلية ، يستحيل على

الرفض ، وبخاصة وقد كانت هذه الدعوة بناء على الرغبة الصريحة التى أبداها رئيس الكلية سير نورمان مور الذى كان لتدريسه اللهم فضل على فى أيام الطلب البعيدة أعظم من أن أستطيع التعبير عما هو جدير به من شكر — وكل ما أستطيع أن أرجوه ألا ينطبق على ، عند انتهاء محاضراتى ، المثل العربى الآخر « من أول غزواته انكسرت عصاته » .

ونحن إذا تكلمنا عن « العلم العربى » أو « الطب العربى » نعنى تلك الطائفة من المذاهب العلمية والتعاليم الطبية المودعة بطون الكتب المؤلفة باللغة العربية والتى يرجع معظم ما فيها إلى أصل يونانى مضافاً إليه زيادات هندية وفارسية وسورية وقدر ضئيل جداً من إنتاج العقل العربى . ولا ترجع أهميتها كما عرف منذ زمن طويل ، إلى أصالتها بل إلى أنها كانت ، فى الفترة الطويلة التى فصلت بين انحطاط المعرفة اليونانية وعصر النهضة ، أصدق تراث للحكمة القديمة ، كما أنها كانت فى العصور المظلمة المورد الأساسى الذى أخذت منه أوربا مالا نهاية له من الأفكار العلمية والفلسفية .

وكانت ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية تتم فى معظم الأحيان ، سواء مباشرة أو عن طريق الترجمة الوسيطة إلى اللغة السريانية ، تحت الرعاية النيرة للخلفاء العباسيين الأول فى بغداد فى الفترة بين منتصف القرنين الثامن والتاسع من ميلاد المسيح (عليه السلام) . وقام بهذه الترجمة علماء مهرة مجدون كان أغلبهم من غير العرب بل من غير المسلمين ، فكان منهم السوريون واليهود والفارسيون ممن يدينون بالمسيحية واليهودية والمجوسية . وبعد مرور أربعة قرون أو خمسة عكف طالبو العلم من الأوربيين ، الذين انقطع ما بينهم وبين المصادر اليونانية ، بحماسة تتزايد على مر الأيام على هذه الصورة العربية للعلم

القديم فألبسوها هنداماً لاتينياً . وظلت الترجمات اللاتينية للمؤلفات العربية فى الفلسفة والعلوم والطب تكون جزءاً كبيراً من إنتاج المطابع الأوربية طوال القرن الأول التالى لاكتشاف فن الطباعة ، وقد استمر ذلك إلى أن جردها إلى حد كبير من مكانتها وفائدتها ، وأبدل ما كانت تتمتع به من احترام وتبجيل إلى ذلك الوقت إلى احتقار مبالغ فيه ، العودة إلى التعرف المباشر بالأصول اليونانية من ناحية ، ومن ناحية أخرى بدء البحث من جديد فى الظواهر الطبيعية رأساً بحثاً أثمر نتائج قيمة .

ومهما يكن من شىء ، فعندما أصبح لما يمكن أن يسمى علم الأجنة مكانة فى السنين الحديثة معترف بها وأهمية ملحوظة ، أخذت الأنظار تزداد التفاتاً إلى الطب العربى وإلى غيره من أساليب الطب القديمة التى عفى عليها الزمن وبطل استعمالها وأصبحت موضوعاً لكثير من البحوث الرائعة البارعة وأنتجت فيضاً لا بأس به من المؤلفات ؛ وأصبحت أهم مصادر كتب السير وفهارس الكتب ، والمخطوطات ، كالفهرست (٣٧٧ هجرية / ٩٨٧ ميلادية) ، وتاريخ الحكماء للقفطى (٦٢٤ هجرية / ١٢٢٧ ميلادية) وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (٦٤٠ هجرية / ١٢٤٢ ميلادية) ، والفهرس الكبير الذى ألفه حاجى خليفة يضم أسماء الكتب (١٠٦٨ هجرية / ١٦٥٨ ميلادية) وأمثالها فى متناول اليد فى طبعات ممتازة ؛ بينما صنفت ملخصات لمحتويات هذه الكتب الأساسية وضعها فنريخ ، وفوستنفيلد ، ولكليرك ، وبروكلمان وآخرون ، وقام نوبرجر ، وباجل ، وويذينجتون ، وجاريسون (Wenrich, Wüstenfeld, Leclerc, Brochelmann, Neuburger, Pagel. Withington. Garrison) بالتعريف بالصفات العامة للطب العربى وعلاقاته (بغيره من العلوم) فى إيجاز

مفيد ؛ وهؤلاء قليل من كثير من الكتاب المحدثين الذين ألفوا فى تاريخ الطب . ومن بين التحقيقات التى فيها تخصص أدق نذكر فرعاً واحداً من فروع الموضوع إذ تكفلت المؤلفات الجديرة بالإعجاب التى كتبها الدكتوران ب . دى كوننج وماكس سيمون (Dr.-P-de Koning. Dr.- Max Simon) بتحديد المصطلحات العربية فى التشريح بكل دقة وأبانت عن تعادلها مع مصطلحات علماء التشريح اليونانيين . بيد أنه لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله فيما يختص بالمصطلحات الباثولوجية ، فقد وجدتُ مشقة كبيرة فى قراءتى الكتب الطبية العربية ، ويرجع ذلك إلى مالاقيته من عناء فى تحديد المعنى العلمى المضبوط لكثير من الكلمات التى يكون لها عند استعمالها فى التأليف الأدبى العادى معانى أكثر انطلاقاً وأقل تحديداً للقصد من المعانى التى من الجلى أنها تحملها فى المؤلفات الفنية التى نتكلم عنها . ولن نحصل على كثير من العون من الترجمات التى قام بها « البرابرة اللاتينيون » فى القرون الوسطى إذ كانوا غالباً يكتفون بالاحتفاظ فى صورة مشوهة بالمصطلح العربى الذى يزعمون أنهم يترجمونه . ومن أمثلة ذلك ما أطلقوه على القسم الأول من المقالة الأولى من الجزء الأول من الكتاب الثالث من كتاب «القانون» العظيم لابن سينا فى الترجمة اللاتينية Sermo Universalis de Sôdâ ، ولكن من ذا الذى يستطيع التكهن ، إذا لم يكن أمامه الأصل ، بأن Sodâ تعنى الكلمة العربية صداع وهى الكلمة المألوفة لوجع الرأس ، وهى مشتقة طبقاً للقواعد الصحيحة للدلالة على الألم من الفعل صدع بمعنى شق ؟

ولا يمكن دراسة تاريخ الطب العربى الآن إلا مرتبطاً بالتاريخ العام للإسلام الذى بدأ يظهر ، كما تعرفون جميعاً ، كقوة سياسية سنة ٦٢٢ ميلادية . ففى تلك السنة قام محمد (صلى الله عليه وسلم) ، الذى كانت معجزته الحقيقية إلهام

القبائل العربية الباسلة روح الإيمان بمثل أعلى اجتماعى ودينى عام . بتوحيد هذه القبائل فجعل منها شعباً واحداً ، وأرسله ليفتح نصف العالم الذى كان معروفاً حينئذ ، وأقام إمبراطورية قدر لها أن تنافس إمبراطوريتى قيصر وكسرى وتحل محلهما ، ونقل مركز نشاطه من مكة إلى المدينة . وتؤرخ هذه الحادثة بداية التاريخ المحمدى وهى المعروفة بالهجرة ، والتى مضى عليها إلى الآن ١٣٣٨ سنة . وفى منتصف هذه المدة أى فى القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى عانت الحضارة العربية أو الحضارة الإسلامية بتعنى أصح من غزو المغول أو التتار من الضر ما لم تتخلص منه أبداً ، فقضى نهائياً على الخلافة ، وهى الوحدة الإسمية للإمبراطورية العربية ، كما قضى على تفوق بغداد باعتبارها مركزاً للمعرفة . وحتى قبل هذا التاريخ حدث ، نتيجة لانتصار العقائد السنية التى نادى بهـا الأشعرى على العقائد الدينيـة المتحررة التى قال بهـا المعتزلة من جهة ، ونتيجة لحلول النفوذ التركى والفارسى تدريجاً من جهة أخرى محل النفوذ العربى فى العالم السياسى ، أن أصبحت العلوم وبخاصة الفلسـفة (التى كانت تتصل بالطب اتصالا وثيقاً حتى كان لقب حكيم ولا يزال يطلق دون تحرج على الطبيب وعلى عالم ما وراء الطبيعة) لا تدرس بنفس الحماسـة والجد والكد وهى الصفات التى كانت سائدة إبان العصر الذهبى من حكم هرون الرشيد وأسلافه وخلفائه المباشرين . وقد بلغ هذا العصر الذهبى للعلم العربى ذروته فى السنين المائة الواقعة بين سنتى ٧٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية وهو القرن الذى تلا قيام الخلافة العباسية وإنشاء عاصمتها بغداد . ومن بين الخلفاء العشرة الذين تولوا الحكم فى هذه المدة كان المنصور ثانى الخلفاء والمأمون سابعهم (وكانت أمه وزوجه فارسيتين ، وبلغ فى عهده النفوذ الفارسى الذى كان من قبل قوياً

أقصى ما بلغه من قوة) يتميزان بفضول عقلى شديد وبحبهما للعلم ورعايتهما الكريمة له ، كما عرفا بتسامحهما الواسع الذى اعتبره السنيون فضيحة شائنة وأدى بأحدهم إلى تغيير لقب الخليفة من أمير المؤمنين إلى أمير الكافرين . وكانا شديدى الكلف بالعلم القديم وبخاصة علم قدماء اليونانيين ؛ وقد جمعا عدداً لا يحصى من المخطوطات الثمينة اليونانية وغير اليونانية عن طريق الشراء أو التبادل أو الفتح وضماها إلى مكتبة الخلافة التى كانت تسمى بيت الحكمة ، وبأمرهما ترجمت إلى العربية ، وقام بهذه الترجمة أكفأ من استطاعا استقدامهم إلى البلاط من العلماء الذين كانوا يقومون بهذه الترجمة إما من اليونانية مباشرة وإما بتوسيط اللغة السريانية . ونجد فى الفهرست (للعلوم) ، وهو كتاب ألف سنة ٩٨٧ أى بعد قرن تقريباً من العصر الذى قلت عنه إنه « العصر الذهبى » ، مرآةً لعلم ذلك الزمان ودليلا على الخسارة المفجعة التى تحملها بعد ذلك ؛ ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد الآن من بين الكتب المدونة به كتاب واحد من كل ألف حتى فى صورة شذرات ، فقد قام المغول « أمة الشيطان البغيضة » كما سماها ماتيو باريس العجوز Matthew Paris (فيما كتب سنة ١٢٤٠ ميلادية) « التى انصبت كالشياطين من هضبات تاتاروس، مما يجعل تسميتهم بالتتار صحيحة ، بأداء مهمة التدمير على أتم وجه ، وأصبحت الثقافة الإسلامية التى بقيت بعد الذى حل ببغداد من نهب وتدمير و بعد زوال الخلافة فى سنة ١٢٥٨ ميلادية مجرد ظل لما كان » .

وقد استعملت المصطلح « الحضارة الإسلامية » لأنى أفضله ، لأسباب ستذكر تواً ، على مصطلح الحضارة « العربية » . وكما كانت اللغة اللاتينية هى لغة العلم فى أوربا فى العصر الوسيط ، كانت اللغة العربية هى لغة العلم فى العالم

الإسلامى كله . وليس الكلام عن « العلم العربى » أو « الطب العربى » محل اعتراض إذا وضعنا نصب أعيننا أن هـذا يعنى فقط مجموعة المبادئ العلمية أو الطبية التى وضعت باللغة العربية ، لأننا لم نبدأ بمقابلة ما يمكن أن تسمى مؤلفات علمية مكتوبة بلغة أهل البلاد من الأقطار الإسلامية إلا منذ القرن الحادى عشر ، وتمثل هذه المؤلفات كتب من أمثال كتاب التفهيم فى التنجيم للبيرونى (القرن الحادى عشر) وكتاب الذخيرة فى الطب الذى كتب لملك خوارزم فى القرن الثانى عشر .

ومعظم هذه المؤلفات العلمية المكتوبة باللغة العربيـة كتبها فارسيون وسوريون ويهود ، والقليل منها كتبه يونانيون ، أما العرب الخلص فلم يكتبوا منهـا إلا أقل القليل . وحكم ابن خلدون الذى ألف كتـابه المشهور « مقدمة لدراسة التاريخ » — وهو من أفضل المؤلفات العربية — حوالى سنة ١٤٠٠ ميلادية ، على أبناء وطنه حكماً سيئاً ، فهو يصرح بأن كل بلد فتح بمعرفتهم لحقه الدمار السريع[1] ، وأنهم لا يقدرون على وضع منهج منظم ومستقر للحكومة[2] ، وأنهم دون شعوب العالم جميعاً ، أقلهم قدرة على تدبير[3] شئون الملك ، وأنهم أقل شعوب العالم جميعاً استعداداً للفنون وميلا لها[4] . ويقول جولد تسهر ، وهو واحد من أشهر الدارسين للغة العربية فى الوقت الحاضر وهو يهودى ، محقاً فى قوله ، إن لا جارد يبالغ كثيراً حين يقرر « أنه لم يكن بين

---

(١) صفحة ٣١٠ من ترجمة دى سلين De Slane والنص من المقدمة « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ، (المترجم) .

(٢) نفس المصدر صفحة ٣١١ .

(٣) نفس المصدر صفحة ٣١٤ — ونص المقدمة « إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك » .

(٤) نفس المصدر صفحة ٣٦٥ .

كل المسلمين الذين حققوا شيئاً فى العلم سامى واحد » ، بيد أنه وجد نفسه مجبراً على الاعتراف بأنه حتى بالنسبة للعلوم الدينية (تفسير القرآن والحديث والتشريع وغيرها) « كان العنصر العربى متخلفاً إلى حد بعيد عن العنصر الأعجمى[1] »
ومن الممكن الإدلاء بالكثير من البراهين على هذا ، ولكننى سأكتفى بواحد منها (وأعتقد أن أوربا لم تنتبه إليه إلى الآن) ألاَ وهو الريبة التى كان ينظر بها إلى العرب الذين كانوا يزاولون مهنة الطب حتى من بنى جلدتهم . والقصة التى أشير إليها رواها الجاحظ العالم الكبير الذى تنوعت تآليفه (ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه) فى كتاب البخلاء ، وهى تتعلق بطبيب اسمه أسد بن جانى لم يقصده فى إحدى السنين الوبيئة التى فشا فيها المرض ، على الرغم من علمه المعترف به وحذقه ومهارته ، إلا قليل من المرضى . ولما سأله أحد معارفه عن السبب فى هذا أجاب « أما واحدة فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب ، واسمى أسد وكان ينبغى أن يكون صليبا أو جبرائيل أو يوحنا أو بيرا (ويعنى بذلك أن يكون الاسم سريانياً أو آرامياً) ، وكنيتى أبو الحارث وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو إبراهيم (ويعنى بهذا أن يكون مسيحياً أو يهودياً بدلا من كونه مسلماً) ، وعلى رداء من قطن أبيض وكان ينبغى أن يكون رداء من حرير أسود ، ولفظى لفظ عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جند نيسابور » (وهى بلدة فى الجنوب الغربى من فارس) .

وقام العرب الذين كان ما يساورهم من شك غير قاصر على الأمور الدينية بالانتقام إلى حد ما بنظم أشعار فيها زراية بالأطباء ، كالأبيات التالية التى قيلت

---

(١) انظر كتابى « تاريخ فارس الأدبى » صفحة ٢٦٠ .

فى وفاة يوحنـــا بن ماسويه (والذى كان يسميه كتاب العصر الوسيط ميسوز Mesues) فى سنة ٨٥٧ ميلادية :

إن الطبيب بطبـــه ودوائـــه لا يستطيـــع دفاع أمر قد أتى
ما للطبيب يمـــوت بالداء الذى قد كان يبرئ منـــه فيما مضى
مات المداوِى والمداوى والذى جلب الدواء وباعه ومن اشترى

ويماثلها فى المضمون الأبيات التالية الواردة فى القصـــة الشعبية المشهورة عنترة البطل البدوى القديم :

يقول لك الطبيب دواك عندى إذا ما جس نبضـــك والذراعا
ولو عـــلم الطبيب دواء داء .... يرد المـــوت ما قاسى النـــزاعا

ولعله من الملائم جـداً ، عند بحث نشأة ما يسمى بالطب العربى وتطوره ، الذى ، وإن كانت خطوطه الرئيسية قد حددت تحديداً واضحاً ، لا تزال تنقصه تفاصيل كثيرة لم توضع فى مكانها ، أن نتساءل عن حالة علم العرب القدامى بالطب أو جهلهم به قبل أن تقضى قوة الإسلام الدافعة على عزلتهم عن الدنيا ، وتبعث بهم إلى غزو نصف العالم المعروف وقتئذ ، وتحمل هذا الشعب البدائى سريع البديهة على أن يتصل اتصالا وثيقاً بالحضارات القديمة اليونانية والفارسية والمصرية والهندية وغيرها . وعلينا أن نميز بين ثلاث حقب سابقة على الحقبة التى أسميتها « العصر الذهبى » وهى :

١ -- العصر الجـــاهلى وهو العصر الوثنى الذى سبق ظهور الإســـلام

وانتصاره السريع الذى ماحل منتصف القرن السابع الميلادى حتى كان قد تحقق على أتم صورة

٢ — عصر حكومة رجال الدين من النبى (صلى الله عليـه وسلم) إلى خلفائه الذين تلوه مباشرة ، وهم الخلفاء الأربعة الراشدون ، والذى بلغ عمره منذ الهجرة حتى اغتيال على ، أقل من أربعين عاماً (من ٦٢٢ — ٦٦١ ميلاديـة) وكانت حاضرته المدينة وهى يثرب القديمة .

٣ — عصر الخلفـــاء الأمويين الذين امتدت إمبراطوريتهم الواسعة . من أسبانيا إلى سمرقند ، والذين سرعان ما ظهر على بلاطهم فى دمشق من ضروب الرفاهية والثراء ما لم يكن قد طاف بأحلام العرب حتى ذلك الحين .

وليس من الضرورى ، بالنسبة لما نحن بسبيله ، أن نبحث كلا من الحقبتين الأولى والثانية من الحقب الثلاث على حدة ، وهما الحقبتان اللتان سبقت إحداهما ظهور الإسلام وتلت الثانية هذا الظهور مبـــاشرة ، ومع اتساع مابينهما من اختلاف فى النواحى الدينية والأخلاقية والسياسية فقد كادتا أن تكونا من حيث المستوى العلمى متساويتين . وكانت حياة عرب الجاهلية القدماء خشنة وبدائية إلى أكبر حد — كما لاتزال عليها الحال إلى الآن بالنسبة للبدو فى المناطق الداخلية القفر من جزيرة العرب — فكانت القبائل المختلفة تشتبك فى حروب وحشية تؤرث نارها ثارات لا تنتهى ، فكان الأقوياء واسعو الحيلة والدهاء هم القادرون وحدهم على البقاء ، أما الضعاف والمرضى فكان حظهم فى البقاء على قيد الحيـاة قليلا . وكانوا من ناحية أخرى ذوى ذكاء ودهاء ، يتصفون بالشجاعة والبأس ، ذوى مروءة فى مواطن كثيرة ، عندهم دقة ملاحظة لـكل الظواهر الطبيعية التى تقع تحت أنظارهم ، لغتهم فيها ثراء ورجولة كانوا يتيهون بها فخراً ، حتى أنهم

إلى الآن ، وهم لا يزالون يحمدون الله « الذى خلق اللغة العربية خير اللغــات جميعاً » ، يرون أن أشعار ذلك العهد الخــالى التى تصف غاراتهم ومواقعهم وأسفارهم وغزلهم تمثل اللغة العربية الـكلاسيكية فى أنقى صورها خير تمثيل ، ولم تكن معظم هذه القبائل المتحــاربة تسلم بأى سلطــان إلا سلطان شيوخهم وأمرائهم ، ولم توجد المبادئ الأولية للحضارة والعلوم ، اللهم إلا فى مملـكتى الحيرة وغسان الصغيرتين المتاخمتين للإمبراطوريتين الفارسية والرومانية .

وكان أول طبيب عربى ذكره القفطى وابن أبى أصيبعة اللذان ترجما فى عناية ودقة لحيـاة الفلاسفة والأطباء هو الحارث بن كلدة الذى عاصر فى شيخوخته النبى محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، والذى أتم دراساته فى المدرسة الطبية الفارسية العظيمة بجنديسابور ، ونال فى مناسبة واحدة على الأقل شرف عيادة الملك خسرو أنوشروان (المعروف عند العرب بكسرى وعند اليونانيين بخسروس) الذى آوى فلاسفة الأفلاطونية الحديثة وأظلهم بحمايته بعد أن أخرجوا من ديارهم إلى المنفى فراراً من تعصب الإمبراطور جوستينيان . وتملأ قصة هذه المقابلة سواء كانت جديرة بالثقة أو غير موثوق بها صفحتين مطبوعتين طبعاً دقيقاً باللغة العربية من كتاب « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ، وقد أورد الدكتور لـكليرك فحواها فى كتابه تاريخ الطب العربى . وتكاد تتكون كلها من مبادئ فى الصحة العامة ، وهى صحيحة بقدر ما هى عليه ، ولـكنها قليلة القيمة من الناحية الفنية . ولسيرة النضر بن الحارث هذا[1] أهمية مأساوية

(١) أثبت لى صديقى العالم ميرزا محمد القزوينى بعد أن قرأ هذه الصفحات بكثير من الحجج والشواهد أن النضر لم يكن ، كما يؤكد ابن أبى أصيبعة، ابن الحارث بن كلدة الطبيب الثقفى ، ولـكنه ابن الحارث بن علقمة بن كلدة ، وهو شخص غيره تماماً وإن كان من أهل عصره .

خاصة ، ويبدو أنه كان كأبيه حاذقاً فى الطب وأنه تلقى تعليماً فارسياً . وأدى به هذا إلى السخرية بالقصص الدينى الذى يحتويه القرآن ، ولم يتردد فى القول بأن هذا القصص أقل قدرة على التسلية وأقل فائدة من الأساطير الفارسية التى تروى عن رستم وأصفنديارى والتى كان يقصها على الحاضرين فى مجالس النبى (صلى الله عليه وسلم) فيصرف انتباههم ويشتت اهتمامهم . ولم يغفر له محمد (صلى الله عليه وسلم) فعلته هذه ، فلما أسر فى موقعة بدر — وهى أول نصر هام للمسلمين على الكافرين — أمر به فقتل .

أما عن آراء النبى (صلى الله عليه وسلم) فى الطب والصحة (ويحتمل أنه استمد بعض آرائه عنها من الحارث السابق الذكر) ففى إمكاننا أن نكون فكرة صحيحة إلى حد كبير عنها من مجموعة الأحاديث الكثيرة الموثوق بصحتها قولا وفعلا ، وهى بعد القرآن أوثق أسس العقيدة المحمدية . وهذه الأحاديث التى جمعت أخيراً فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد رتبت فى مجموعات بحسب الموضوع ، ويكون كل موضوع منها « كتاباً » وكل حديث « بابا » . وإذا أخذنا صحيح البخارى ، وهو أشهر كتب الحديث ، نجد فى أول المجلد الرابع كتابين فى الطب والمرضى ، كل ما يحتويان عليه ثمانون باباً . وهذا أمر يفتح باب الرجاء ، ولكننا نجد إذا أمعنا النظر أن جزءاً صغيراً منها فقط هو الذى يتناول موضوعات الطب والجراحة والتطبيب كما نفهمها ، أما الجزء الأكبر فخاص بالزيارة وتشجيع المرضى والتسرية الروحية عنهم ، والحسد ، والسحر ، والطلاسم والتعاويذ ، والرقى ، والأحجبة . ومع أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أعلن أن لكل داء يصاب به الناس الدواء المناسب ، فإنه لم يفعل ذلك إلا أنه حدد الطرق الرئيسية للعلاج بثلاث « : تناول العسل ، والحجامة ، والكى » وهو

يوصى أتباعه بتجنب الكى والإقلال من استعماله . ومن بين المواد الأخرى الواردة فى الأحاديث التى تستعمل فى العلاج نجد لبن النوق ، وحبة البركة ، والصبر ، والأثمد (لعلاج العيون) ، والمن ، ويستعمل رماد السماد قابضاً لوقف النزف . أما الأمراض المذكورة فى هذه الأحاديث فمنها وجع الرأس ، والشقيقة والرمد ، والبرص ، والتهاب البلورا ، والأوبئة ، والحمى ويسميها « زفير جهنم » وينصح النبى أتباعه ألا يزوروا بلداً يتفشى فيه الوباء ، وأن عليهم ألا يتركوه فراراً إذا وجدوا أنفسهم فيه . وقد خضعت المادة القليلة التى زودتنا بها هذه الأحاديث وغيرها (لأن القرآن فيما عدا ذكر بعض الجروح وبعض الآيات المجملة عن علم الأجنة يكاد لا يحتوى على أية معلومات طبية) لنوع من التنظيم قام به المؤلفون المتأخرون فيما يسمى « طب النبى » ، وقد أخبرت أن دليلا مختصراً باسم طب النبى لا يزال من أوائل الكتب التى يقرؤها طالب الطب القديم فى الهند مع مختصر كتاب القانون لابن سينا المعروف بالقانونشاه .

ويذكر اللوذعى ابن خلدون ، الذى سبق أن ذكرته فى مناسبة سابقة ، هذا الطب النبوى باستخفاف[1] وكذلك الطب المحلى فى البلاد العربية الملخص فى الطب النبوى كما أنه جزء منه ثم يضيف مصطنعاً الحكمة « إننا غير مطالبين باتباع قواعده » فإن رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) كانت تبليغ أوامر الشريعة الإلهية ولم يبعث ليعلمنا الطب أو غيره من شئون الحياة العادية . وهو يذكر بهذه المناسبة بأن النبى (صلى الله عليه وسلم) أمر يوماً ما بألا يلقح نخيل البلح صناعياً ، مما كان له أسوأ الأثر على المحصول ، ودعاه ذلك إلى الرجوع فيما نهى عنه قائلا « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . ويستمر المؤلف قائلا

---

(١) ترجمة دى سلين De Slane صفحات ١٦٣ — ١٦٤ .

« فليس هناك إلزام على أحد[1] بتصديق أن الوصفات الطبية التى وردت حتى فى الأحاديث الصحيحة قد نقلت إلينا باعتبارها قواعد يجب علينا اتباعها ؛ وليس فى هذه الأحاديث ما يدل على أن الأمر كذلك . ومع ذلك فصحيح أنه إذا أراد إنسان ما أن يستعمل هذه الأدوية يريد بذلك اكتساب البركة الإلهية ويكون استعمالها بإيمان خالص ، فقد يفيد من ذلك فائدة عظيمة ، وإن كانت ليست جزءاً من الطب بمعناه الصحيح » .

وآمل أن أكون قد ذكرت ما فيه الكفاية لبيان بعد الشقة بين ما اعتبر معرفة طبية عند العرب الأقدمين من العصر الجاهلى والنبوى وعصر الصحابة وبين النظام المحكم الذى أقيم فى بغداد على الأسس التى وضعها أبو قراط وجالينوس تحت رعاية الخلفاء العباسيين الأول . والحقائق عن هذا النظام مؤكدة والمعلومات وافرة . ولكن الصعوبة تقوم عند تحديد ما وصل إليه النظام الطبى من تقدم فى عهد الخلفاء الأمويين فى الفترة المتوسطة الواقعة بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن من التاريخ المسيحى . فهؤلاء الأمويون وإن كانوا عرباً خلصاً إلا أنهم كانوا قد اعتادوا آنذاك على الحياة المستقرة وأطايب الحضارة وملذاتها ، وبعد ما بينهم وبين فاتحى تيسيفون عاصمة

---

(١) ونص المقدمة « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه فكان عند العرب من هذا الطب كثير، والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحى فى شىء ، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ما وقع فقال « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم إلا إذا استعمل على سبيل التبرك وصدق العقد الإيمانى ، فيكون له أثر عظيم فى النفع وليس ذلك فى الطب المزاجى » .

الساسانيين الذين أخطئوا فحسبوا الكافور ملحاً ووجدوا مذاقه فى طعامهم تفها؛ والذين استبدلوا بكمية من الذهب كمية مماثلة من الفضة — « الأصفر مقابل الأبيض » حسب تعبيرهم وباعوا جوهرة ملكية لا مثيل لها بألف قطعة من النقود وسبب ذلك ، كما قال البائع عندما ليم لبيعها بهذ الثمن البخس ، إنه لم يكن يعرف عدداً يجاوز الألف حتى كان يطلبه . وفى عهدهم بلغت الإمبراطورية العربية الإسلامية أقصى ما وصلت إليه من اتساع ، إذ إن أسبانيا ، وهى إحدى مفاخر عهدهم الكبرى ، لم تعترف مطلقاً بسلطان العباسيين . وكانوا فى مصر وفارس ، وكذلك فى سوريا وفى حاضرتها دمشق ، حيث كان مقر حكمهم، على اتصال مباشر بأهم مراكز العلم فى ذلك العصر الحالى . وعلينا أن نتساءل عن مدى ما أفادوه من الفرص التى أتيحت لهم .

ففى مجال تطوير علم الإلهيات ، كما روى فون كرامر[1] ، يكاد يكون من المؤكد أنهم تأثروا بيحيى الدمشقى الملقب خريسوراس Chrysorrhoas الذى أطلق عليه اسم منصور بالعربية ، وكان صاحب حظوة لدى معاوية أول خلفاء بنى أمية . وأول من ثارت فيه الرغبة من العرب فى معرفة حكمة اليونان هو الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان شديد التوق إلى الإلمام بالكيمياء . وطبقاً لما جاء فى الفهرست[2] ، وهو أقدم مصدر موجود للعلم بهذه الشئون وأحسنها ، جمع خالد الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا فى مصر وأمرهم أن ينقلوا الكتب اليونانية والمصرية الخاصة بهذا الموضوع إلى اللغة

---

(١) المجلد الثانى صفحات ٤٠١ وما بعدها Culturgeschichte d. Orients من كتاب Von Kremer

(٢) صفحة (٢٤٢) .

العربية ، ويقول مؤلف الفهرست إن هذه الترجمات « كانت أول ما نقل فى الإسلام من لغة إلى أخرى » ويقترن بذكر هذا الأمير ذكر الكيماوى العربى الشهير جابر بن حيان الذى اشتهر فى أوربا فى العهد الوسيط باسم جيبر Geber وكثير من الكتب التى نسبت إليه فى العصور الوسطى إن لم يكن معظمها ليس من تأليفه بل وضعها فى الأصل باحثون أوربيون أرادوا استغلال ما لاسمه من قيمة لكى يجعلوا لمؤلفاتهم وزناً ويضمنوا لها الذيوع والانتشار . ومؤلفاته الأصلية العربية نادرة ، والدراسة الجادة الوحيدة التى وقعت لى موجودة فى المجلد الثالث من الكتاب البديع تاريخ الكيمياء فى العصر الوسيط لمؤلفه بيرتيلو Berthelot حيث يوجد نص لإحدى مقالاته الأصيلة مع ترجمته إلى الفرنسية ، وأبان بيرتيلو عما هو فى الواقع معلوم منذ زمن طويل من أنه ولو أن ما قصد إليه قدماء الكيميائيين هو الوصول إلى حجر الفلاسفة وإكسير الحياة فإنهم رغم ذلك توصلوا إلى كثير من الاكتشافات الحقيقية القيمة . وما أكثر ما نحن مدينون به إلى العرب من هذه المكتشفات ، ويتضح ذلك من ألفاظ كالكحول ، والأنبيق ، وأمثالها التى لا نزال نستعملها . ومن المعترف به بصفة عامة ، أن أكثر ما أضافه العرب إلى العلم الذى ورثوه عن اليونانيين كان إلى الكيمياء والمادة الطبية (ماتيريا ميديكا) .

وفى مجال الطب نجد النزر اليسير من بين عرب هذا العصر ، إذ يذكر فيه ثلاثة أطباء أو أربعة بعينهم ومعظمهم مسيحيون يحتمل أنهم من غير العرب وواحد من هؤلاء كان ابن أوتال طبيب معاوية أول الخلفاء الأمويين اغتاله رجل من بنى مخزوم شك أنه قتل بالسم قريباله اسمه عبد الرحمن كان بغيضاً إلى الخليفة وبتحريض منه . وطبيب آخر اسمه أبو الحكم ، وهو مسيحى أيضاً

وعاش إلى أن جاوز المائة وكذلك عاش ابنه الحكم . ولدينا عن الابن رواية مفصلة إلى حد كبير عن طريقته الناجحة فى معالجة حالة شديدة من حالات نزيف وريدى تسببت فيه عملية جراحية قام بها حلاق تنقصه المهارة . ويبدو أنه لم يكتب أى واحد من هؤلاء شيئاً، ولكن ينسب إلى عيسى بن الحكم تأليف كناشة كبيرة أو رسالة موضوعها « المهارة فى الطب » لم يبق منها أى جزء .

ويذكر كتاب السير من العرب شخصاً يسمى تيودوسيوس أو تيودورس[1] وواضح أنه يونانى وكان طبيب الحجاج بن يوسف الثقفى ، العامل القدير المعروف بقسوته ويحظى عنده بمكانة عظيمة . وبعض أقواله المأثورة محفوظ ولكن لم يبق أى كتاب من الكتب الأربعة المعزوة إليه. وتختم القائمة القصيرة التى تضم هؤلاء الذين زاولوا مهنة الطب فى هذا العصر بامرأة بدوية تدعى زينب كانت تعالج أمراض العيون. أما الصحة العامة فيدل على أنه قد بدئ بتوجيه بعض العناية إليها ما ذكره الطبرى[2] المؤرخ من أن الخليفة الوليد عزل سنة ٨٨ هجرية / ٧٠٧ ميلادية المصابين بالجذام ، وخصص لهم القدر المناسب من الطعام. أما البدو فكانوا يلجئون إلى الرقى والتعاويذ القديمة يصاحبها غالباً وضع لعاب المعالج على المريض . ومن الأمثلة على ذلك ما يروى عن الشاعر جرير[3] الذى زوج ابنته أم غيلان لساحر يسمى الأبلق الذى عالجه بهذه الطريقة من مرض الحمرة . أما ممارسة الطب فى الأيام الحالية بين العرب الخلص المقيمين فى شبه الجزيرة من البدو والحضر فقد تولى زويمر ذكرها بإيجاز مفيد فى كتابه « بلاد

---

(١) ويذكر ابن أبى أصيبعة فى المجلد الأول من صفحة ١٢١ إلى ١٢٣ أن اسمه تياذوق .

(٢) المجلد الثانى صفحة ١١٠٩٦ من السلسلة الثانية Secunda Series

(٣) طبعة بيفان Bevan للنقائض صفحة ٨٤٠ .

العرب ، مهد الإسلام »[1] ، ووصفه يمثل ، بقدر ما يتيسر لنا الحكم عليه ، إلى حد لا بأس به حالتها فى ذلك الزمن البعيد الذى نتكلم عنه .

ولا تزال هناك مسألة تتطلب النظر قبل أن نمضى إلى الكلام عن عصر إحياء العلوم العظيم برعاية الخلفاء العباسيين الأول فى بغداد فى القرنين الثامن والتاسع من التاريخ الميلادى . ومن رأى ليكليرك فى كتابه تاريخ الطب العربى أن عملية استيعاب العلم اليونانى بدأت قبل ذلك بقرن من الزمان عند فتح العرب مصر . وهو يحدد دوراً هاماً فى هذه العملية لشخص يسمى يحيى النحوى كانت له حظوة كبرى عند عمرو بن العاص فاتح مصر وأول وال مسلم عليها ، ويقول إنه هو يحيى فيلوبونس شارح أرسطو . ويحيى هذا ، الذى نجد أوفى ما كتب عنه فى تاريخ الحكماء[2] للقفطى ، قسيس من اليعاقبة كان يقيم بالإسكندرية أنكر بعد لأى عقيدة التثليث ، ومن ثم لفت إليه أنظار المسلمين الذين تبوء عندهم عقيدة التثليث بأخص المقت لاعتقادهم الجازم بوحدانية الله . وكان هو ، طبقاً للقصة المشهورة ، التى يرفض المستشرقون بعامة تصديقها السبب النهائى سليم النية فى قيام المسلمين بحرق الكتب التى كانت تضمها مكتبة الإسكندرية العظيمة . ومن الغريب أن ليكليرك ، على الرغم من ميوله العربية الواضحة وعلى الرغم من حبه للمسلمين، يقبل هذه القصة على أنها حقيقة تاريخية[3]

---

(١) صفحات ٢٨٠ — ٢٨٤ من كتاب Arabia, the Cradle of Islam

(٢) طبعة ليبرت Lippert صفحات ٣٥٤ — ٣٥٧

(٣) قدم ل. كرهل L. Krehl الحجج التى تثبت عدم صدق هذه القصة فى رسالته المسماة « رأى فيما يقال من أن حريق مكتبة الإسكندرية قام به العرب »
Uber die Sage von der Verbrunning der Alexandrini - schin Bibliothek durch die Araber.
المنشورة ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع للمستشرقين (فلورنسا ١٨٨٠ م) .

وكان يحيى هذا على أى حال عالماً يونانياً كبيراً ، ويقول القفطى إنه ذكر فى أحد مؤلفاته السنة التى كتب فيها مؤلفه وكانت سنة ٣٤٣ من التاريخ الديوكليشى (محسوبة من سنة ٢٨٤ ميلادية) . ويتفق هذا تماماً مع وجوده فى مصر فى الوقت الذى فتحها فيه العرب سنة ٦٤٠ ميلادية . ولكنه ينفى نفياً تاماً أنه هو يحيى فيليبونس الذى ازدهر ، طبقاً للملاحظة أضافها الأستاذ برى Bury إلى القصة التى رواها جيبون Cibbon ، لا فى القرن السابع بل فى أوائل القرن السادس بعد المسيح[1] فى حين أن مكتبة الإسكندرية الثمينة كانت ، كما نوه جيبون ، قد دمرت تماماً ، دمرها المتعصبون المسيحيون قبل أن يغمر مد المسلمين مصر بثلاثة قرون تقريباً .

وموضوع مصير مكتبة الإسكندرية ومعرفة شخصية كل من الرجلين المسمى كل منهما بيحيى ثانويان جداً بالنسبة للموضوع الأكبر والأهم وهو حالة العلم فى مصر عند الفتح . ويرى ليكايرك أن مدرسة الطب ، التى كانت ذات شهرة مستفيضة فيما مضى ، عاشت طويلا بعد مدرسة الفلسفة واستمرت قائمة ، حتى بعد أن فقدت كثيراً من روعتها القديمة ، إلى زمن فتح العرب لمصر . وهذا موضوع يصعب القول فيه برأى حاسم ، ولكن الدكتور والس بدج Dr Wallis Budge الذى طلبت إليه إبداء الرأى ، يرى بصفة قاطعة أن المؤلفات المصرية التى كتبت فى ذلك الوقت ، لم تحتو على أى حال ، من حيث معالجتها لهذه الموضوعات فى أى صورة ، إلا على القليل من المعلومات الطبية يونانية أو غير يونانية أو أنها خلت منها تماماً . ويجب علينا فى نفس الوقت أن نعطى للرواية العربية التى ثبتت بالتواتر فيما يتعلق بترجمة كتب الكيمياء

---

(١) المجلد الخامس طبعة برى صفحة ٤٥٢ .

اليونانية للأمير الأموى خالد بن يزيد فى مصر ماهى جديرة به من وزن ، كما يجب أن نعترف بإمكان ، إن لم نعترف باحتمال ، أن تكون هذه التراجم مشتملة على موضوعات أخرى فلسفية وطبية وأشباهها فضلا عن الموضوع الذى يكوّن هواية الأمير الخاصة السابق ذكرها .

وليكن هذا كيفما يكن ، فالواقع أن الجدول العظيم لعلوم اليونان وغيرها من العلوم القديمة أخذت تتدفق علومه منصبة فى العالم الإسلامى فى منتصف القرن الثامن الميلادى فى مدينة بغداد حديثة النشأة آنذاك وتكتسى ثوباً عربياً جديداً . إلا أن المدرسة الساسانية القديمة فى جنديسابور فيما يختص بالطب ظلت ظاهرة الغلبة . وقد حان الوقت الذى يجب علينا فيه أن نذكر شيئاً مختصراً عن هذه المدرسة التى اشتهرت يوماً ما ، وأصبحت الآن مجرد اسم لاقى السياح والعلماء العصريون صعوبة فى التعرف على مكانها فى قرية شاه أباد[1] بمحافظة خوزستان فى الجنوب الغربى من بلاد فارس .

وتدين المدينة بوجودها إلى شاهبور الأول الملك الساسانى وهو ابن إزدشير باباكان وخليفته ، وإزدشير هو الذى أنشأ تلك الأسرة العظيمة فى القرن الثالث الميلادى ، وأعاد إلى الوجود عظمة فارس فى عهد الأخيمينيين بعد عهد من النكسة ظل خمسة قرون ونصف قرن . وقام شاهبور بعد أن هزم الإمبراطور فاليريان وأسره ونهب مدينة أنطاكية الشهيرة ، ببناء مدينة فى المكان المسمى

---

(١) انظر ملاحظات رولنسون Rewlinson المنشورة فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية الجزء التاسع صفحات ٧١ — ٧٢ تحت عنوان Notes on a March from Zuhab to Khuziatan وانظر ملاحظات Layard و المجلد السادس عشر صفحة ٨٠ من نفس المجلة .

باللغة السريانية بيت‌لابات ، وسمى هذه المدينة ڤيه — آز — أنديف — شابور ، أى « شابور خير من أنطاكية » ، وهو اسم تم تحوله تدريجياً إلى جنديشابور وأصبح فى اللغة العربية جنديسابور[1] . وبنيت مدينة أخرى «خير من أنطاكية » فى القرن السادس الميلادى ، بناها خسرو أنوشروان وهو خسروس باليونانية وكسرى بالعربية وسماهـا لمميزها عن المدينة الأولى ڤيه — آز — أنديف — أى — خسرو . وكان أغلب سكان هذه المدينة الأخيرة من المواطنين المنفيين من المدينة الأجنبية التى سميت باسمها — وذلك طبقاً لما جرى عليه العمل فى فارس حتى القرن السادس عشر — وبخاصة من الفنيين والصناع .ومن المحتمل أن تكون جنديسابور قد استقبلت عدداً كبيراً من المستوطنين اليونانيين أيضاً ، لأن الترجمات اليونانية لنقوش شابورالفهلوية المنحوتة على صخور أصطخر فى فارز Fars تبرهن على أن العمال اليونانيين كان استخدامهم ميسوراً فى ذلك الوقت حتى فى المناطق الداخلية من فارس . وبعد مرور أربعين أو خمسين‌سنة ، فى أوائل القرن الرابع وفى عهد حكم شابورالثانى أصبحت‌المدينة مقر الإقامة الملكية ، وفيها حكم على مانى منشىء المذهب المانوى بالموت وحشا جلده بالقش وعلق من أحد أبواب المدينة الذى عرف بعد ذلك بزمن طويل ، وحتى فى العهد الإسلامى باسم « باب مانى » ويبدو محتملا أن شابور الثانى عين فيها أيضاً الطبيب اليونانى تيودوسيوس أى تيودورس الذى استدعاه للعناية به والذى ذكرت طريقته فى العلاج الطبى فى الفهرست[2] باعتبارها كتاباً فارسياً من كتب‌الطب ترجم بعد ذلك إلى العربية وبقى محفوظاً

(١) انظر كتاب ولدكه Th. Noldekés Gesch - d. Perser u. Arab zur Zeit der Sasaniden ليدن سنة ١٨٧٩ ، صفحات ٤٠ — ٤٢ .

(٢) صفحة ٣٠٣

إلى القرن العاشر الميلادى على أى حال . وكان هذا الطبيب ، وهو مسيحى محل تقدير وتكريم فى فارس حتى أن شابور أمر بأن تبنى له كنيسة واستجاب لرجائه فحرر عدداً من مواطنيه الأسرى .

كان تطور مدرسة جنديسابور الكبير وتقدمها مع ذلك نتيجة غير منتظرة وغير مقصودة لعدم التسامح البيزنطى الذى أرغم النسطوريين فى القرن الخامس الميلادى على هجر مدرستهم فى مدينة Edessa والالتجاء إلى بلاد فارس . وقام فى القرن التالى كسرى أنوشروان الملك المثقف المحب للحكمة وحامى الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين[1] المنفيين بإرسال طبيبه برزويه إلى الهند ، واستطاع بمعاونة لعبة الشطرنج وكتاب كليلة ودمنه الشهير أن يعود إلى فارس ومعه كتب هندية فى الطب ، ويبدو أنه أحضر معه كذلك بعض الأطباء الهنود .

وإذن كانت مدرسة جند يسابور عند مولد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) فى أوج عظمتها . فهناك التقت العلوم اليونانية والشرقية ؛ أما العلوم اليونانية ، فنقل جزء منها مباشرة عن طريق العلماء اليونانيين ، ولكن نقل معظمها يرجع إلى السوريين ذوى الجلد القادرين على الاستيعاب ، والذين عوضوا ما ينقصهم من أصالة بالكد والمثابرة . وكان سرجيوس رأس العين الذى ازدهر قبل ذلك التاريخ بقليل[2] أحد أولئك الذين ترجموا أبو قراط وجالينوس إلى السريانية . ولم يبق الكثير من هذه الترجمات الطبية السريانية الوسيطة ، التى نقل منها الكثير إن لم يكن معظم الترجمات العربية فى القرنين الثامن والتاسع . ولكن الترجمة الفرنسية للترجمة السريانية لأقوال أبو قراط

---

(١) حوالى سنة ٥٣١ ميلادية .

(٢) توفى فى القسطنطينية حوالى سنة ٥٣٦ ميلادية .

المأثورة[1] التى حررها وطبعها م . ه . پونيون M. H. Pognon وكذلك كتاب الطب السريانى Syriac Book of Medicine [2] للدكتور واليس بدج Dr. Wallis Budge يساعدانا على تكوين فكرة عن نوع هـذه الترجمات وقيمتها . ولا شك أن آسيا مدينة بالكثير إلى السوريين أيا كانت نقائصهم ، وهى مدينة للنسطوريين بصفة خاصة ، وتشهد حروف الهجاء المكتوبة فى لغات شعوب المغول Mongol والمانشو Manchu ، واليغور Uyghur وشعوب أخرى كثيرة من سكان النصف الغربى من آسيا بما لآداب الشعوب الآرامية من أثر .

ولكن مع أن التدريس الطبى فى جنديسابور كان باللغة اليونانية أساساً ، فلم يكن هناك شك فى وجود عنصر فارسى وبخاصة فى الفارماكولوجيا حيث تكشف الأسماء العربية بوضوح فى كثير من الأحيان عن الأصول الفارسية . ومما يؤسف له أن أعظم عصرين من عصور فارس السابقة ، على الإسلام ، وهما عصر الأخيمينيين (من ٥٥٠ إلى ٣٣٠ ق . م) وعصر الساسانيين (من ٢٢٦ إلى ٦٤٠ ميلادية) انتهيا بكارثة غزو أجنبى ، الغزو اليونانى فى الحالة الأولى ، والعربى فى الحالة الثانية ، وقد كان من أثر الغزوتين التدمير الشامل لكل العلوم والآداب المحلية حتى أصبح من المستحيل علينا أن نعيد تكوين ما هو أكثر من مجرد صورة أولية لما كانت عليه هاتان الحضارتان . ومع هـذا فإن الأفستا Avesta وهو الكتاب المقدس لدى أتباع أزدشير يذكر ثلاث طبقات من المعالجين ، بالصلوات والطقوس الدينية ، وبالأغـذية

---

(١) Une Version Sʎriaque des Aphorismes d'Hippocrate ليزج ١٩٠٣
(٢) مجلدان ، أصل وترجمة ، سنة ١٩١٣ .

والعقاقير ، وبالآلات ، وبمعنى آخر الكهنة ، والأطباء ، والجراحون . وتوجد فقرة عجيبة فى كتاب فينديداد Vendîdâd خاصة بالطبقة الأخيرة ، وهى توجب على الجراح المبتدئ أن يجرى ثلاث عمليات ناجحة لمرضى من الكفار قبل أن يحاول إجراء عملية لواحد من أتباع « الديانة المزدوية الطيبة » . وكان الأطباء اليونانيون ، وأشهرهم تيسياس Ctesias ، بالإضافة إلى وجود طبيب مصرى من وقت إلى آخر ، يوجدون فى بلاط الأخيمينيين قبل عهد الإسكندر المقدونى .

ويبدو أن مدرسة الطب فى جنديسابور لم تتأثر إلا قليلا بالغزو العربى وفتحهم لفارس فى القرن السابع الميلادى ، ولكن سلطان بغداد مع تأثيرها الواسع فى المسلمين لم يبدأ فى الظهور إلا فى النصف الأخير من القرن الثامن عندما أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية . وفى سنة ٧٦٥ ميلادية استدعى[(1)] المنصور ثانى الخلفاء العباسيين جرجس بن بختيشوع (وهو اسم نصف فارسى والنصف سورى ويعنى « يسوع قد خلص ») [(2)] كبير أطباء المستشفى الكبير فى جنديسابور لمعالجته من مرض أعجز أطباءه . ومرض جرجس بعد ذلك بأربع سنين فالتمس السماح له بالعودة إلى بيته لرؤية عائلته وأطفاله، وليدفن مع آبائه إذا جاء أجله . ودعاه الخليفة إلى الإسلام ولكن جرجس أجاب بأنه يفضل أن يكون مع آبائه سواء فى الجنة أو فى النار ، فضحك الخليفة لهذه الإجابة وقال « لقد خفت آلام الأمراض التى كانت تعاودنى منذ رأيتك » ،

---

(١) القفطى ، تاريخ الحكماء ، صفحة ١٥٨ .

(٢) شرح هذه الأسماء الفارسية القديمة التى تبدأ أو تنتهى « بخت » يرجع إلى الأستاذ نولدكه Th. Nöldke فى كتابه
Gesch. d. Artakhshir-i-Papakans ، صفحة ٤٩ m.

وصرفه ومنحه عشرة آلاف دينار ، وأرسل معه تابعاً أمره أن يوصله حياً أو ميتاً إلى جنديسابور « مدينــة أبو قراط » التى كان شــديد الحب لها Civitas Hippocratica ووعد جرجس أن يرسل إلى بغداد أحد تلاميذه المسمى عيسى بن شهلا ليحل محــله ، ولـكنه رفض أن يرسل ابنه بختيشوع الثانى لأنه لا يمكن الاستغناء عن وجوده فى بيمارستان جند يسابور .

وظلت أسرة بختيشوع ستة أجيال متتابعة وما يزيد على ٢٥٠ سنة محتفظــة بالصــدارة فى الطب ، فـكان آخرهم (جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس بن جبرائيل) الذى توفى فى ١٠ من أبريل سنة ١٠٠٦ ، مبرزاً كأولهم وموضع تـكريم ذوى الرياسة والنبلاء فى عصره . وكان من خصائص أطباء جند يسابور أن يقصروا علمهم عليهم ، ولم تـكن عندهم رغبة فى أن يفضوا بعلمهم إلى الغرباء . ويستدل على ذلك بما لقيه فى أول عهده بالتعليم حنين بن اسحق المترجم الشهير الذى قام بترجمة المؤلفات الطبية اليونانية إلى اللغة العربية ، وهو الذى عرف فى أوربا فى العهد الوسيط بجوهانيتيوس Johannitius وكان حنين مسيحياً من أهل الحيرة عنده رغبة شديدة إلى المعرفة ، وكان صيدلانى يوحنا بن ما سويه (المعروف فى اللغة اللاتينية البربرية بميسوز Mesues) ، ويتابع الاستماع إلى محاضراته، ولـكنه كان يجنح إلى توجيه أسئلة محرجة كثيرة جداً ، ونفد صبر أستاذه يوماً ما فصاح فيه قائلا «ماذا يصنع أهل الحيرة بالطب؟ اذهب واشتغل فى صرف النقود فى الشوارع !» وطرده فخرج باكياً . ويقول القفطى [1] وذلك « لأن القــوم فى جند يسابور كانوا يعتبرون أنفسهم الجديرين وحدهم بهذا العلم ولا يرضون أن يذهب هذا

---

(١) نفس المصدر ، صفحة ١٧٤

العلم منهم ومن أولادهم وأقاربهم « ولكن حنين وقد زاد عزماً وتصميماعلى تحصيل المعرفة من مصادرها تغيب سنين عدة تعلم فيها اللغة اليونانية ، وخلال هذه المدة رأى الطبيب يوسف ، وهو أحد معارف حنين السابقين ؛ فى يوم من الأيام رجلا ذا شعر طويل وشارب ولحية مرسلة ينشد أشعار هومر فى الطريق ، وعلى الرغم من تغير هيئته تعرف على صوت حنين . ولما سأله اعترف بأنه حنين بعد أن أخذ على يوسف موثقاً بالسكوت قائلا إنه آلى على نفسه ألا يتابع دراسته الطبية إلا بعد أن يتأكد أنه أتقن اللغة اليونانية .

ولما رجع أخيراً اتصل بجبرائيل بن بختيشوع الذى اغتبط بمعرفته الوثيقة باليونانية وصرح بأنه معجزة فى العلم ، وتقدم ابن ماسويه الذى سبق أن طرده ازدراء لشأنه إلى يوسف يرجوه أن يتدخل بينه وبين حنين ويعمل على الصلح معه . واستطاع حنين فيما يلى من الأيام أن يكتسب رضا الخليفة الذى أراد أن يختبر أمانته لمهنته باختبار شاق ، فأمره أن يعد سماً لأحد أعدائه وتوعده بأشد العقاب — السجن أو الموت — إذا رفض . ولكنه رفض ، وبعد أن قضى سنة فى السجن أحضر أمام الخليفة وخير للمرة الثانية بين الموافقة والحصول على مكافأة سنية وبين نطع الجلاد ، فأجاب حنين « لقد سبق أن ذكرت لأمير المؤمنين أنى ماهر فقط فيما هو نافع ، ولم أدرس شيئاً غيره » . ولما هدد بالموت فوراً قال « إن لى رباً سيجزينى غداً بما أستحق يوم القيامة ، أما إذا كان الخليفة يريد أن يهلك نفسه فليقتلنى » . وحينئذ تبسم الخليفة وأعلنه أنه إنما أراد أن يتثبت من استقامته ونزاهته قبل أن يوليه ثقته الكاملة . وهكذا انتهت هذه الحادثة على خير . ولكنها تبين أن وظيفة طبيب البلاط فى بغداد فى العهد العباسى الأول كانت وظيفة شاقة ، وهى حقيقة تكشف عنها قصة

الطبيب دوبان والملك يونان المشهورة (إلا أنها كانت ذات نهاية مفجعة) وهى إحدى قصص ألف ليلة وليلة[1].

ولم يكن حنين أشهر هؤلاء المترجمين فحسب بل كان أكثرهم إنتاجاً ، فإن سبعة من مؤلفات أبو قراط العشرة التى ذكر مؤلف الفهرست أن لها ترجمات عربية فى زمانه ، مترجمة بمعرفة حنين ، أما الثلاثة الأخرى فمن ترجمة تلميذه عيسى بن يحيى ، فى حين أن الكتب الستة عشر التى ألفها جالينوس ترجمها كلها حنين أو تلميذه حبيش . وكان المتبع بصفة عامة ، كما نعلم من الفهرست[2] أن يترجم حنين من اليونانية إلى السريانية ثم يقوم حبيش بالترجمة من السريانية إلى العربية ، وتراجع بعد ذلك النسخ العربية بمعرفة حنين ، الذى كان يقوم أحياناً بالترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرة . وكانت اللغات الثلاث معروفة لمعظم المترجمين ، ومن المحتمل ، كما يقول ليكليرك ، أن تتوقف الترجمة إلى السريانية أو العربية على القراء الذين قصدت الترجمة أصلا لهم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين . ولا يوجد فى أيامنا هذه إلا عدد قليل نسبياً من هذه التراجم العربية حتى فى صورة مخطوطات ، ولكن توجد مخطوطات فى حالة جيدة من « الأقوال المأثورة »[3] « والإشارات[4] فى المتحف البريطانى فضلا عن ملخص لكتب جالينوس « الستة عشر » [5] المنسوب إلى يحيى النحوى ، وتوجد نسخة باللغة العربية من كتاب « الأقوال المأثورة » مطبوعة على الحجر

---

(١) ترجمة لين (لندن ١٨٥٩) الجزء الأول ، صفحات من ٨٣ إلى ٨٦ .

(٢) صفحة ٢٨٩ .

(٣) مشرقيات ٥٩١٤ ، ٦٤١٩ ، مشرقيات ٥٨٢٠ ، مشرقيات ٦٣٨٦ مشرقيات ٥٩٣٩ .

(٤) مشرقيات ٥٩١٤ .

(٥) أروندل مشرقيات ١٧ .

فى الهند إلا أننى لم أرها .وهذا القحط فى النصوص من سوء حظ طلاب علم الطب العربى الذين يعوقهم ذلك كثيراً عن التوصل إلى حل مسألتين أوليتين هامتين، أولاهما دقة هذه التراجم العربية القديمة أو أمانتها ، وثانيتهما تطور المصطلحات الطبية العربية التى يغلب عليها ألا تكون مفهومة بغير الرجوع إلى الأصل اليونانى . ففيما يختص بالمسألة الأولية الأولى ، فيبدو أن ليكليرك[1] على صواب فيما يراه من أن الترجمة من اليونانية إلى العربية كانت تتم بصفة عامة بمهارة أعظم ومعرفة أتم مما كانت تجرى به الترجمات المتأخرة من العربية إلى اللاتينية ،وأن الذى يصدر حكمه على الطب العربى معتمداً على هذه التراجم المتأخرة سيحط من قدره حتماً ويظلمه ظلماً بيناً . ويصعب علينا بالفعل ألا نجزم بأن فقرات كثيرة من الترجمة اللاتينية لكتاب القانون « لابن سينا أخطأ المترجم فهمها أو لم يفهمها على الإطلاق ، وبناء على ذلك لا يمكن أبداً أن تكون قد نقلت إلى القارئ فكرة واضحة .

وأمدتنا مدينة حران بطائفة أخرى من مهرة المترجمين من اليونانية إلى العربية، ومدينة حران هى شارا إحدى المدن القديمة التى ظلت على جاهليتها إلى القرن الثالث عشر ، ونظراً إلى ما تسنمته الثقافة اليونانية من عالى الدرجات فى هذه المدينة وإلى المدة الطويلة التى احتفظت بهذه الثقافة فيها عرفت بهيلينوبوليس ، أما كيف أصبح سكان هذه المدينة يسمون ابتداء من القرن التاسع الصابئين مع أنهم لا رباط بينهم وبين الصابئين الحقيقيين الكلدانيين (الذين لا تزال منهم بقية ، تعرف عند المسلمين بالمغتسلة لأن من طقوسهم كثرة الاستحمام والاغتسال ،وتعرف عند الأوربيين لنفس السبب باسم « نصارى

---

(١) المجلد الثانى من تاريخ الطب العربى ، صفحات ٣٤٦ — ٣٤٨ .

القديس يوحنا المعمدان » تقيم إلى اليوم بالقرب من البصرة وعلى ضفاف شط العرب)فلذلك قصة عجيبة جداً ذكرها بتفصيل طويل مع الوثائق الكتابية على صحتها شوولسون Chwolson في كتابه العظيم Die Ssabier und Ssabismus[1] وأشهر هؤلاء الحرانيين من العلماء ثابت بن قرة (ولد سنة ٨٣٦ وتوفى سنة ٩٠١ ميلادية) ، وأولاده إبراهيم وسنان ، وأحفاده ثابت وإبراهيم ، وابن حفيده سنان وعائلة زهرون . وينبغي ذكر مترجم آخر من أهل ذلك العصر ، وإن كانت ميوله تنحو به نحو الرياضيات أكثر من اتجاهها إلى الطب ، وهو كوستابن لوقا وهو مسيحي من بعلبك بسوريا وتوفى سنة ٩٢٣ ميلادية .

وهكذا ماوافى القرن العاشر حتى كانت طائفة كبيرة ممتازة على العموم من ترجمات أشهر المؤلفات اليونانية العلمية والفلسفية كلها بين يدى المسلمين الذين لم تكن اللغة العربية عندهم جميعاً ، دون نظر إلى أجناسهم ، لغة الوحى والدين فحسب ، بل كانت لغة العلم والسياسة والتخاطب أيضاً . ولم يعن المسلمون بالأدب والدراما إلا قليلا ، ويبدو أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً مطلقاً عن الكتاب اللاتينيين . وكان أحب مؤلفي كتب الطب من اليونانيين إليهم عدا أبو قراط وجالينوس ، روفوس الأفيساوى وأوريباسيوس وبول الايجيني والإسكندر التيرالى . أما أحب مؤلفي الماتيريا ميديكا فكان ديوسكوريدس . وتكفلت التراجم العربية في بعض الحالات بحفظ المؤلفات اليونانية التي فقدت أصولها ، وأجدر حالة من هذه الحالات بالتذكر هي كتب التشريح السبعة لجالينوس (من الكتاب التاسع إلى الخامس عشر) فقد فقدت أصولها اليونانية

---

(١) سان بطرسبورج ١٨٥٦ ، مجلدان . ارجع إلى المجلد الأول الفصل السادس صفحات ١٣٩ — ١٥٧ .

وبقيت فى اللغة العربية ، وقام الدكتو ماكس سيمون Dr MaX Simon [1] بطبع النص العربى ومعه ترجمة باللغة اليونانية ونقد كامل مصحوباً بمعجم بديع للمصطلحات الفنية باللغات العربية واليونانية والألمانية وقد سبق أن أشرنا إليه .

ولو توافرت بين أيدينا المادة اللازمة لكان من الممتع المفيد أن نقارن بين تلك التراجم العربية المنقولة من اليونانية مباشرة وبين تلك التى مرت باللغة السريانية كوسيط بين اليونانية والعربية . ولا أستطيع أن أبدى رأياً فى الترجمات السريانية القليلة الموجودة لأننى بكل أسف لا أعرف تلك اللغة ، ولكن م . بونيون M-Pognon كان حكمه عليها قاسياً ، وقد سبق أن تكلمت عن طبعه للترجمة السريانية لأقوال أبو قراط المأثورة وترجمته لها [2] . وفيها يقول « إن الترجمة السريانية للأقوال المأثورة التى يحتوى عليها مخطوطى ترجمة أمينة جداً بل غاية فى الأمانة للأصل اليونانى ، وهى أحياناً ترجمة حرفية فعلا خالية تماماً من أى معنى . ومن أسف أن هذا لايساعدنا على تحديد الزمن الذى تمت فيه ، إذ إن الترجمة الحرفية كانت خطأ شائعاً بين كثيرين من المترجمين السوريين ».

ويستمر فيقول « ولن تبلغ بى الجرأة إلى حد القول بأن السوريين لم تكن لديهم ترجمات واضحة سليمة اللغة صحيحة الأسلوب ، ولكن الغالب على معظم

(١) مجلدان ، ليزج (١٩٠٦) ، كتب جالينوس السبعة فى التشريح ،
Sieben Bücher Anatomie des Galen.

(٢) Une Version Syriaque des Aphorismes d'Hippocrate, texte et traduction, par M. Pognon, Consul de France a Alep. (Leipzig 1903) نسخة من ترجمة سريانية لأقوال أبو قراط المأثورة ، نص وترجمة بقلم م. بونيون قنصل فرنسا فى حلب ، (ليزج ١٩٠٣)

الترجمات التي وصلتنا أنها كانت غامضة الأسلوب ، وكان بناؤها اللغوى خاطئاً والألفاظ مستعملة فى الغالب لتؤدى معانى ليست هى المعانى التى تراد منها إذا استعملت استعمالا صحيحاً ، ويرجع هذا بصفة عامة إلى رغبة المترجم إلى السريانية فى إنتاج صورة أمينة غاية الأمانة للأصل اليونانى . وكان المترجمون السوريون إذا وجدوا جملة صعبة يقنعون غالباً بوضع كلمة سريانية لكل كلمة يونانية دون أن يحاولوا بأى حال أن يكتبوا جملة مفهومة . وهكذا نجد فى ترجماتهم جملا كثيرة بل وتعبيرات عديدة لا معنى لها إطلاقاً . وبالاختصار ، أعتقد أن المترجين كانوا إذا لم يفهموا معنى كلمة يونانية لايترددون فى نقلها كما هى بالحروف السريانية تاركين لقرائهم أن يحدسوا فى معنى هذه اللغة البربرية التى أنشئوها » . وهو يصم ترجمة الأقوال المأثورة التى هى موضع اهتمامه بأنها « كريهة » ويضيف إلى ذلك قوله « إذا ما قابل المترجم جملة غامضة ، تكون ترجمته لها غامضة ، وإذا ما قابل جملة تحتمل ترجمات عدة تكون ترجمته بحيث تتعدد سبل فهمها » وهو يدلل على رأيه هذا بأمثلة عديدة .

ومن جهة أخرى فالعقل العربى عقل نير إيجابى ؛ واللغة العربية لغة تتسم بشدة الانفعال والقوة وهى غنيةً بالفعل وبما فيها من احتمالات كامنة . وكان العرب الأقدمون قوماً يتصفون بحدة الذهن وقوة الملاحظة ، وعندهم لكل ما يقع تحت أنظارهم من أشياء طبيعية ألفاظ مناسبة بينها فروق دقيقة . وكان عليهم ، طبعاً فى كثير من الحالات لنقل كتب الطب اليونانية إلى لغتهم ، أن يقوموا باختراع مصطلحات جديدة مترجمة من اليونانية أو محاكية لها ، وغالباً لا يتيسر فهمها إلا بالرجوع إلى الأصول اليونانية ، ولكن لغتهم كانت تحتوى منذ قديم على مفردات تشريحية غزيرة إلى حد ما وكانوا فوق ذلك

مولعين بتداولها فى حياتهم العادية وكذلك فى أشعارهم . ومن ذلك أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك ، الذى توفى سنة ١٠٥ هجرية ، ٧٢٣/٧٢٤ ميلادية متأثراً بحبه للجارية حبابة ، كانت تهيج أشجانه ويطرب طرباً شديداً بإنشادها للبيت التالى[1] .

بين التراقى واللهاة حرارة　　ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

وللشاعر المتنبى (القرن العاشر) قصيدة[2] يصف حمى أصابته وهو فى مصر فى ذى الحجة سنة ٣٤٨ هجرية (فبراير ٩٦٠ م) ثم شفى منها ، يقول فيها .

عليل الجسم ممتنع القيام　　شديد السكر من غير المدام

وفيها يشبه الحمى بفتاة لعوب لا تزوره إلا تحت ستار الظلام :

وزائرتى كأن بها حياء　　فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا　　فعافتها وباتت فى عظامى

يضيق الجلد عن نفسى وعنها　　فتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتنى غسلتنى　　كأنا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجرى　　مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق　　مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر　　إذا ألقاك فى الكرب العظام

---

(١) كتاب الفخرى طبع أولوارت ، ص ١٥٥ . Ahlwardt

(٢) ديوان المتنبى طبع ديتيرتشى Dieterici ص ٦٧٥ — ٦٨٠

وبهذا الخيال العجيب رسم صورة واضحة لهذيان الحمى وعودتها الليلية المنتظمة ، كما صور النافض الذى يتقدمها والعرق الغزير الذى تنتهى به ، والذى شبهه مغرقاً فى التخيل ببكاء امرأة انتزعت من أحضان حبيبها .

وكان من المنتظر فى أيام الخلافة أن يوجه كل شخص متعلم بعض اهتمامه إلى الطب ، وأن يعرف شيئاً من التشريح ، ويستدل على ذلك من القصة العجيبة التى تروى فى كتاب ألف ليلة وليلة عن الجارية تودد التى كان نصيبها من الحسن والجمال لايدانيه إلا ما كانت عليه من فطنة وذكاء . إذ عرضت الجارية على الخليفة هارون الرشيد بثمن باهظ (١٠٠٠٠ دينار) ، عرضها سيدها أبو الحسن بعد أن فقد ماله ، ووافق الخليفة على أن يدفع الثمن بشرط أن تجيب إجابة صحيحة عن بعض الأسئلة التى يوجهها إليها أشهر علماء كل فرع من فروع المعرفة التى تدعى أنها تجيدها . وعلى هذا استدعى الخليفة أشهر أساتذة الدين والشريعة والتفسير والطب والفلك والفلسفة والبلاغة والشطرنج لاختبارها ، واحداً بعد الآخر ؛ وكانت لا تجيد الإجابة عن أسئلتهم فى كل حالة فحسب بل توجه إلى كل منهم فى النهاية سؤالا لايستطيع المسئول الإجابة عنه . ويصف لين[1] Lane هذه القصة التى تستغرق ستا من ليالى كتاب ألف ليلة وليلة بأنها «مملة إلى أقصى حد عند معظم القراء » ، ولكنها ذات قيمة كبرى فى أنها تبين عما كان يعتبره المسلمون فى العصور الوسطى تعليما عاماً مرضياً . وكان الجزء الطبى من هذا التعليم يشمل مبادئ التشريح

(١) الليالى من ٤٤٩ إلى ٤٥٤ ؛ طبعة ماك ناغتن Macnaghten المجلد الثانى صفحات من ٥١٢ ، إلى ٥٢١ ؛ ترجمة سير بيرتون Burton المجلد الخامس صفحات من ٢١٨ الى ٢٢٧ .

والفسيولوجيا طبقاً لما يراه العرب، وتشخيص المرض من الأعراض والعلامات، وأمراض الطبائع (الأمزجة) ، والصحة ، والتغذية وما شابه ذلك . وكانت معرفتهم بعدد العظام يكاد يكون تاماً ، أما معرفتهم بالأوردة والشرايين فكانت مبهمة . وتقول توودد عن فروع الأوردة « لايعلمها إلا من خلقها ، ولكن يقال إنها تبلغ ٣٦٠ » وهو عدد فيه أسرار ، ١٢ × ٣٠ ، لا يزال يقوم بدور كبير فى عقائد فرق معينة من فرق المسلمين التى تسميه « عدد كل شىء » لأسباب يكون فى سردها فى هذا المجال مشقة وإملال .

لقد أخذت كثيراً جداً من وقتكم هذا المساء فى بحث هذه الأوليات التمهيدية . وفى نيتى أن أحدثكم فى المحاضرة القادمة عن أربعة من أشهر قدماء المؤلفين المسلمين فى الطب الذين تلوا عصر المترجمين العظام ؛ وكانوا جميعاً من الفرس وإن ألفوا باللغة العربية ؛ وكانت التراجم اللاتينية لأشهر الكتب التى ألفها ثلاثة منهم وهم المعروفون عند اللاتينيين البرابرة بالرازس وهالى عباس ، وافيسينا، هى ثلاثة من أعظم الكتب الطبية المتداولة فى أوربا فى العصر الوسيط وأجلها قدراً .

المحاضرة الثانية

فى محاضرتى السابقة تتبعت نمو ما يسمى « الطب العربى » إلى القرن التاسع الميلادى ، أيام المترجمين العظام الذين عاشوا فى العصر العباسى الأول ، وأوضحت كيف مكنوا بجهدهم وعملهم لتعاليم أعظم أطباء اليونانيين القدماء وبالأخص أبو قراط ، وجالينوس ، وروفوس الأفيسى ، وبول الأيجينى حتى أصبحت فى متناول يد العالم الإسلامى . وعلينا الآن أن نتجه إلى الكتاب العرب المتحررين الذين ألفوا فى الطب ابتداء من هذا الأساس ، فصنفوا كتباً فيها أصالة ، قلت أو كثرت ، تتضمن إلى حد ما ملاحظاتهم الخاصة مرتبة حسب منهجهم الخاص . بيد أن اتساع الموضوع يضطرنى إلى أن أفرض على نفسى حدوداً صارمة نوعاً فيما يختص بالمكان والزمان والموضوع ، ولهذا فسأقتصر على القرنين اللذين تليا مباشرة العصر الذهبى الذى يقع بين سنتى ٧٥٠ ، ٨٥٠ بعد الميلاد؛وعلى القسم الشرقى من الأقاليم الخاضعة للخليفة وبخاصة بلاد فارس. وفضلا عن ذلك فسأقصر حديثى على أربعة أو خمسة من الأعلام الذين ألفوا فى الطب فى هذا الزمن الذى حددته،وعلى كتاب واحد من مؤلفات كل منهم ، ومع وجود مثل تلك القيود فلن يمكن الوصول إلا إلى فكرة جزئية وسطحية ، فإنه من الواضح أن سلسلة كاملة من المحاضرات يمكن وقفها

على قسم واحد من أى كتاب من الكتب التى سأتحدث عنها اليوم حديثاً قصيراً .

ومهما يكن من شىء فهناك مسألة أو مسألتان أوليتان ينبغى أن تذكرا بكلمات قليلة تمهيداً لموضوعنا ، وأولى هاتين المسألتين تطور المصطلحات العلمية العربية . وقد رأينا أن السوريين كانوا يميلون إلى نقل الكلمات اليونانية كما هى دون أى محاولة لتوضيح معناها ، تاركين للقارئ فهمها كل بقدر استطاعته. وفعل المترجمون اللاتينيون مثل ذلك تماماً وهم ينقلون من اللغة العربية، وكتاب القانون لابن سينا فى ترجمته اللاتينية حافل بكلمات بربرية ليست مجرد ألفاظ منقولة بل هى فى كثير من الحالات نقل خاطئ يكاد يتعذر معه التعرف على الأصل العربى المنقولة عنه. فمن ذلك أن العظمة المسماة فى اللغة العربية «العصعص» منقولة فى الترجمة اللاتينية Alhosos ومنطقة الخاصرة المسماة فى العربية « القطن » منقولة Alchatin ، وكلمة « العجز » منقولة فى صور متعددة منها al-hagiazi, alhauis ، وكلمة « النواجذ » وهى أسنان العقل منقولة Naugid,i أو Neguegida ويمكن أن نعثر على عشرات من هذه الأمثلة البشعة فى كتاب التشريح العربى والعبرى Das Arabische unt Hebraische in der Anatomie (فيينا ١٨٧٩) تأليف الدكتور هرتل Dr. Hyrtl ويجب أن أعترف أن العرب ارتكبوا نفس الجريمة بدرجة أقل شناعة بتشويههم الألفاظ اليونانية كما فعلوا مثلا فى ترجمتهم للكلمة au Veîos بلفظ أنفس التى أصبحت بدورها فى يد اللاتينيين البرابرة لفظة أبجس. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن اللغة العربية تفتقر تماماً إلى السهولة التى يتوافر بها فى اللغة اليونانية تكوين كلمات مركبة للتعبير عن معان جديدة مركبة ، فقد أفلح العرب على

العموم فى التعبير بنجاح لا بأس به عن المصطلحات الفنية اليونانية . فلفظة Diagnosis عبر عنها بلفظة « تشخيص » وهى كلمة تعنى أساساً التعرف على الشخص ، وكلمة Prognosis عبر عنها بعبارة ثقيلة هى « تقدمة المعرفة » وهو معناها الحرفى . وتظهر فى أوائل الكتب العربية من أمثال كتاب « فردوس الحكمة» ، الذى سأتناوله وشيكاً بالحديث ، كلمات فارسية سريانية غريبة لعلها مستعارة من المفردات التى كانت تستعمل فى جنديسابور ، واستعيض عنها فيما بعد بكلمات عربية صحيحة معادلة لها . ومن ذلك أننا نجد فى النسخة الفذة الموجودة من مخطوط الكتاب المذكور توا كلمة تعبر عن الألم الذى يشمل الرأس كله (باعتبارها مقابلة لكلمة الشقيقة ، التى تدل على الألم الذى يصيب نصف الرأس) مذكورة مرتين وفى كلتيهما كانت الكتابة خاطئة (فمرة سنوريا ومرة سورتا) وقد اتضح بعد الرجوع إلى عدد كبير من الدارسين للسريانية أن المقصود هو الكلمة السريانية سانوارتا Sanwartȧ

ويقال إنها فارسية وتعنى أساساً الخوذة . ومن الواضح أنها بالفعل الكلمة الفارسية Sar - band أو Sar - Wand أو San - ward مع إضافة أداة التأكيد السريانية ȧ . ويصلح هذا المثل للتدليل على نوع الصعوبة التى يمكن أن يقابلها القارئ أو المترجم ، ويقابلها زيادة على هؤلاء المحرر ، الذى يقوم بتحرير هذه الكتب العربية القديمة ، ولهذا لا تكاد توجد طبعات محققة حتى من الكتب القلائل التى تم نشرها فى صورتها الأصلية .

*

ومن جهة أخرى ، فإن اللغة العربية ، فضلا عن وجود العدد الوافر من المفردات التشريحية، والمرضية والطبية العربية الصحيحة بها، قادرة على تكوين مشتقات لها دلالات خاصة من جذور الكلمات ، تصبح فور تكوينها مفهومة .

ومن هذا القبيل ، وجود صيغة خاصة فى العربية للدلالة على الألم هى صيغة « فُعَال» وتـكون بضم الحرف الأول ومد الحرف الثانى المفتوح ، وهذه هى الصيغة التى تتخذها أسماء معظم الأمراض والعلل ، كالصداع الذى سبق ذكره للدلالة على الألم ، « الذى يصدع الرأس » وهو المعنى بلفظة Soda التى نقلها اللاتينيون البرابرة ، والزكام ، والجذام ، . . ألخ . وبالقياس على ذلك نحصل من الجذر دَوْر على كلمة دُوَار للدلالة على العلة التى تنتج من الدوران السريع ؛ ومن بحر على بُحار (دوار البحر) ، ومن خمر على خُمار وهو ألم الرأس الناتج من الإفراط فى شرب الخمر ، وهكذا . ولم أقابل أبداً لفظة جُبال من جبـل ، ولـكن إذ حدث وقابلتها فسأعرف حتما أنها لا يمـكن أن تعنى شيئاً آخر خلاف « مرض الجبل » . وفى بعض الحالات يعنى المصطلح الفنى العربى نظرية باثولوجية ، ومن أمثلة ذلك استسقاء ، ومستسقى ، وهما المصدر واسم الفاعل من فعل الطلب « استسقى» المـأخوذ من الجذر «سقى يسقى » وهما فى اللغة العادية «اشتهاء المـاء أو التماسه ، ومشتهى المـاء وملتمسه » ولـكنهما يعنيان فى الطب مرض الاستقساء ومريض بالاستقساء بالمطابقة للمثل اللاتينى السائر .

Crescit indulgens sibi dirus hydrops

« ومن الاشتهاء ينمو مرض الاستقساء الفظيع »

وهكذا يتضح أن اللغة العربية عامة صالحة صلاحية تامة لوضع مصطلحات فنية ملائمة ، وقد صنعت ذلك فعلا للعالم الإسلامى كله سواء كان لسان القوم اللغة العربية أو الفارسية أو التركية أو الأردية ، وهى تواصل هـذا العمل فى الوقت الحاضر كما تشهد بذلك مطابع مصر الحديثة .

وتوجد نقطة أخرى جديرة بكلمة قصيرة خاصة بالتشريح وهـل مارسه

المسلمون ؟ والجواب عن هذا التساؤل يكون بالنفى عادة ، وأصارحكم بأنى أميل إلى هذا الرأى . ولكن موسوعة للسير فارسية حديثة ضخمة لم تكمل تسمى « كتاب الأعلام » صنفها أربعة من العلماء هم ميرزا أبو الفضل الساوى الطبيب، والشيخ محمد مهدى عبد الرب عبادى الملقب بشمس العلماء ، وميرزا حسنى الطلقانى الملقب بالأديب ، وميرزا عبد الوهاب بن عبد العلى القزوينى،ظهرت حديثا مطبوعة على الحجر فى طهران منذ ٢٥ سنة ، ذكر فيها[1] أن يوحنا بن ماسويه الشهير لما عجز عن الحصول على جثث آدمية قام بتشريح القردة فى حجرة خاصة للتشريح أقامها على ضفة دجلة ؛ وأن نوعا خاصا من القردة كان يعتبر أقربها شبها للإنسان كان يمده به حاكم النوبة بأمر أصدره الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م . وسند هذه القصة ابن أبى أصيبعة ، وهى مذكورة حقا فى كتاب « طبقات الأطباء »[2] ولو أنها وردت فى صورة أقل وضوحاً مع زيادة فى التفاصيل . بيد أنها ليست موجودة فى كتاب « تاريخ الحكماء » للقفطى ، وأخشى ألا أستطيع أن أعدها بينة ذات وزن على ممارسة التشريح فى مدارس الطب العربية . وعرف يوحنا بن ماسويه هذا بحدة المزاج وسلاطة اللسان ؛ وورد فى الفهرست أنه قال مرة لرجل أغضبه من رجال البلاط « لو أن مكان ما فيك من الجهل عقلا ، ثم قسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منهن أعقل من أرسطو طاليس »[3]

ولنعد الآن إلى مؤلفى كتب الطب الذين انتويت الكلام عنهم هذا المساء ،

---

(١) المجلد الثانى ، صفحتا ٣٧ — ٣٨ .

(٢) الجزء الأول ، صفحة ١٧٨ طبعة القاهرة .

(٣) الجزء الأول ، صفحة ١٨١ طبعة القاهرة .

وأقدمهم على بن رَبَّن الطبرستانى ، وطبرستان إقليم فارسى يقع جنوب بحر قزوين . ورَبّن كما أوضح فى أول كتبه هو لقب أبيه لا اسمه . فهو يقول « كان أبى ابن أحد كتاب مدينة مرو المتحمسين للفضيلة ، وكان يحاول جاهداً اكتساب المعرفة والإفادة من كتب الطب والفلسفة ، مفضلا الطب على صناعة آبائه . وكان يرمى من وراء ذلك إلى اكتساب الفضائل الإلهية أكثر من السعى وراء حسن الذكر والربح ، وبهذا ينال تقدير الناس . ولذلك لقب بربن ومعناه المفسر له ، « سيدنا ، ومعلمنا » .

ومن هذا اللقب يمكننا أن نستنتج أن أباه كان إما نصرانيا وإما يهوديا ، والحقيقة أن القفطى[1] يقول فى النبذة القصيرة التى كتبها عنه أنه كان يعتنق الديانة الأخيرة ؛ وأن اسمه سهل ، ولم يعلن ابنه إسلامه إلا بعد التحاقه بخدمة الخليفة المتوكل . وكان قبل ذلك سكرتيراً لمازيار الشهير من أسرة فارسية نبيلة هى أسرة قارن الذى شق عصا الطاعة على الخليفة أملا فى تحرير وطنه من نير العرب ، وقبض عليه أخيراً وصلب ببغداد بجوار بابك زعيم المراطقة . والتحق على بن ربن بخدمة الخليفة ، وفى السنة الثالثة من حكمه (٨٥٠) نجح على أخيراً ، بعد أن توقف مرات عديدة ، فى إتمام كتابه عن الطب والفلسفة الطبيعية الذى عكف على تأليفه منذ زمن طويل وسماه « فردوس الحكمة » . وهذا كل ما عرف تقريبا عن حياته عدا ما يتضح من صورة له مرسومة فى كتابه[2] من أنه كان كما تدل عليه نسبته إلى جبال طبارستان وضبابها ؛ وعدا ما هو أهم من هذا وهو أنه كان واحداً من الشيوخ الذين تلقى عنهم الرازى الطبيب الكبير

---

(١) الجزء الأول ، صفحة ٢٣١ طبعة القاهرة .

(٢) المتحف البريطانى ، or, 41 مشرقيات ٤١ Arundel مخطوط وجه ١٥ أ .

العلم . وهذه الحقيقة بالذات تجعل كتابه موضع اهتمام عظيم . وطبقا للفهرست[1] ألف على بن ربن أربعة كتب فقط أهمها « فردوس الحكمة » . ولا بد أنه كان فى زمن ما كتابا مشهورا عظيم القدر ، فقد ذكر ياقوت فى «معجمه»[2] أن المؤرخ العظيم ابن جرير الطبرى كان يقرؤه وهو على فراش المرض ؛ بينما فى مكان آخر من نفس الكتاب[3] ، حيث يوجه اللوم للصاحب إسماعيل بن عباد الراعى العظيم للأدباء لتصوره نفسه فوق أوثق المراجع علمية وفنية ، ذكر « فردوس » على بن ربن[4] باعتباره واحدا من تلك المراجع . وجرى على هذا الكتاب ما جرى على غيره من الكتب العربية الثمينة إذ كاد فيما بعد أن ينقرض . ولا أستطيع أن أؤكد أنه يوجد من هذا الكتاب فى أيامنا الحاضرة أكثر من مخطوطين ، واحد منهما قديم وفى حالة حسنة وموجود فى المتحف البريطانى (Arundel, Or, 41) وقد صورته لاستعمالى الخاص ؛ وثانى المخطوطين (Lendberg, 266) فى برلين . ولكن هذه النسخة الثانية ليست بقدر ما وصل إلى علمى ، إلا موجزا للكتاب ، أو على الأقل تحتوى على نص مشوه أو مختصر للأصل .

وكتاب « فردوس الحكمة » الذى أرجو أن أحققه يوما ما ، وربما أقوم بترجمته ، يتناول الطب بصفة رئيسية ، ولكنه يتناول الفلسفة ، والأرصاد الجوية وعلم الحيوان ، والأجنة ، والسيكولوجيا ، والفلك أيضا . وهو كبير

---

(١) صفحة ٢٩٦ .

(٢) مسلسلة ذكرى E.J.W. Gibb جزء ٦ ، صفحة ٤٢٩ .

(٣) المصدر السابق صفحة ٢٧٩ .

(٤) الاسم مكتوب فى النص خطأ (زين) بدلا من (ربن) .

الحجم نوعا ، يتكون من ٥٥٠ صفحة تقريبا ، ومقسم إلى سبعة أنواع ، وثلاثين مقالة ، وستين وثلاثمائة باب . ويذكر المؤلف أن مصادره الأساسية هم أبو قراط ، وأرسطوطاليس ، وجالينوس ، ويوحنا بن ما سويه (Messues) وحنين المترجم وهو حنين بن اسحق الذى عرف فى العصر الوسيط باسم جوهانيتيوس (Johannitius) . وتحتوى المقالة الرابعة من النوع السابع وهى الأخيرة فيه على ٣٦ بابا تتضمن خلاصة للطب الهندى . ولو قرأت لكم المستخلص الذى أعددته لمحتويات هذا الكتاب لبعثت فى نفوسكم الضجر والملالة ، وما كان على هذا ليقابل باستحسان المؤلف نفسه ، فهو يقول :

« ما أشبه الذى يجيل الفكر فى هذا الكتاب متمعنا بإنسان يتجول فى حدائق غناء كثيرة الثمر تسر الناظرين ، أو فى أسواق المدن الكبرى حيث تجد كل الحواس ما يملؤها بالغبطة والسرور ، أما الذى يكتفى من هذا الكتاب بمعرفة عدد أبوابه دون أن يعنى بقراءة ما ينطوى عليه كل منها فلن يفهم المعنى الحقيقى لما أقول ، ومثله مثل رجل يقصر علمه بتلك الحدائق والمدائن على تأمل أبوابها ، ولكن الذى يتقن العلم بهذا الكتاب ، ويتعمقه بفهم كامل سيجد فيه أكبر قدر يحتاج إليه الشاب المتخرج من علوم الطب ومن العلم بما تقوم به قوى الطبيعة فى هذا العالم الصغير (الإنسان) وكذلك ما تؤديه فى العالم الكبير (الكون كله) » .

وربما يتطلب الأمر أن أتقدم ببعض التبرير لنقلى كلمة المتخرج العربية فى الفقرة السابقة فى معناها الحديث بترجمتها بكلمة graduate التى يبدو أنها ترجمة للفظ يدل بصفة محددة على المرء يخرج من مدرسة أو كلية أتم فيها دراسته . ولهذا يجدر بنا أن نعلم أن نوعاً من الامتحان التأهيلى فى الطب كان قد تقرر عقده ،

إن لم يكن فى سنة ٨٥٠ ميلادية فى الوقت الذى كان مؤلفنا يكتب فيه ، فبعد ٨٠ سنة من ذلك التاريخ فى عهد الخليفة المقتدر بسبب خطأ وقع ووصل إلى علمه سنة ٩٣١ ، فأصدر قراراً يقضى ، كما يخبرنا القفطى[1] ، بألا يمارس أحد الطب فى بغداد إلا إذا أرضى سنان بن ثابت الحرانى وشهد له بالكفاية والخبرة ؛ واستثنى من ذلك عدد قليل من الأطباء ذوى المنزلة المعترف بها لما نالوه من شهرة ؛ أما باقى الأطباء ويقرب عددهم من ٨٦٠ طبيباً فكان عليهم أن يؤدوا اختباراً . ولم يتسم هذا الاختبار دائماً بالجدية والنفاذ ويتضح ذلك من الحادثة الآتية : كان من بين من يمارسون الطب الذين أدوا الاختبار أمام سنان رجل كهل جليل الهيئة ، حسن الشارة ، مهيب الطلعة ، لذلك عامله سنان باحترام وتقدير ، وألقى إليه ببعض الملاحظات عن الحالات التى أمامه . وبعد أن صرف سنان من أمامه من الطلاب اتجه إليه قائلا « أود أن أسمع من الشيخ شيئاً أذكره به ، وأن يذكر لى اسم الأستاذ الذى علمه المهنة» . عند ذلك وضع الرجل الكهل حفنة من المال بين يدى سنان وقال : «إننى لا أحسن القراءة والكتابة ، ولم أقرأ شيئاً بانتظام ، ولكننى رب عائلة أنفق عليها من عملى فى هذه المهنة التى أرجو ألا تمنعنى من الاستمرار فيها » فضحك سنان ورد عليه قائلا « بشرط ألا تعالج أى مريض بما لا تعرف ، وألا تصف الفصد علاجاً ، ولا تصف عقاراً مسهلا إلا فى الأمراض البسيطة . فأجاب الرجل « لقد كان هذا ديدنى طول حياتى ، ولم أجترئ أبداً على أن أزيد على السكنجبين والجلب » . وفى اليوم التالى كان من بين من حضروا للاختبار أمام سنان رجل فى مقتبل العمر حسن الهندام ،

---

(١) تاريخ الحكماء ، صفحتا ١٩١ ، ١٩٢ .

ذو رونق معجب ، تلوح عليه مخايل الذكاء ، وسأله سنان ، على من درست ؟ فأجاب« على أبى » . فسأله سنان « ومن أبوك ؟ » — فأجاب الآخر « الرجل الكهل الذى كان معك أمس » . فرد سنان عالى الصوت « إنه لعجوز لطيف هل تتبع طريقته ؟ . . نعم ؟ . . . عليك ألا تزيد عليها ! » .

ومع أن ذكر ما احتوى عليه كتاب « فردوس الحكمة » يعتبر كما قلت فى غير محله ، فلا بأس من ذكر منهجه العام باختصار .

النوع الأول : يتناول بعض الأفكار الفلسفية العامة ، والأجناس ، والطبائع والعناصر ، والاستحالة ، والخلق ، والتحلل .

النوع الثانى : يتناول بالبحث الأجنة ، والحمل ووظائف الأعضاء المختلفة وهيئاتها ، والأعمار ، والفصول ، والسيكولوجيا ، والحواس الخارجيةوالداخلية ، والأمزجة والعواطف،والغرائز الشخصية، وبعض الأمراض العصبية (التيتانوس ، الخدار ، الخفقان ، الكابوس الخ) ، والحسد ، والتغذية ، وعلم الصحة .

النوع الثالث : يبحث فى الغدد والتغذية .

النوع الرابع : (وهو أطولها ويتكون من ١٢ مقالة) يبحث فى الباثولوجيا الخاصة والعامة ، ابتداء من الرأس إلى القدم ، ويختمه بذكر عدد العضلات ، والأعصاب ، والأوردة والشرايين ، ويتناول القصد ، والنبض وفحص البول .

النوع الخامس: يبحث فى الأذواق ، والروائح ، والألوان .

النوع السادس: يبحث فى الماتيريا مديقا ، والسموم .

النوع السابع : يبحث فى المناخ ، والمياه والفصول من حيث صلتها بالصحة ، ومبادئ علم الأكوان Cosmography والفلك ، وفائدة علم الطب ، ويختمه كما سبق أن لاحظنا بملخص للطب الهندى فى ٣٦ باباً .

ويلاحظ أن الكتاب يحتوى القليل جداً عن التشريح والجراحة والكثير جداً من الكلام عن المناخ والتغذية والغذاء والعقاقير ومن بينها السموم . والنوع الرابع الذى يتناول الباثولوجيا بالبحث هو أكثرها إمتاعاً وأجدرها بالاهتمام ، ولعلكم تسمحون لى أن أبين محتويات المقالات الاثنتى عشرة التى يتكون منها بتفصيل أتم .

المقالة الأولى : (تسعة أبواب) تبحث فى الباثولوجيا العامة ، وعلامات الأمراض الباطنة وأعراضها ، ومبادئ العلاج .

المقالة الثانية : (أربعة عشر باباً) تتكلم عن أمراض الرأس وإصاباته ، وأمراض المخ ومنها الصرع ، والأنواع المختلفة من وجع الرأس (الصداع) ، والتينيتوس Tennitus والدوار ، وفقدان الذاكرة ، والكابوس .

المقالة الثالثة : (اثنا عشر باباً « تبحث فى أمراض العيون والجفون ، والأذن والأنف » وتتضمن الرعاف ، والزكام) والوجه والفم والأسنان .

المقالة الرابعة : (سبعة أبواب) تبحث فى الأمراض العصبية وتشمل التشنج والتيتانوس ، والشلل ، وشلل الوجه ، الخ .

المقالة الخامسة : (سبعة أبواب) تبحث فى أمراض الحلق ، والصدر ، والأجهزة الصوتية وتشمل الربو .

المقالة السادسة : (ستة أبواب) تبحث فى أمراض المعدة وتشمل الفواق .

المقالة السابعة : (خمسة أبواب) تبحث فى أمراض الكبد وتشمل الاستسقاء .

المقالة الثامنة : (أربعة عشر باباً) تبحث فى أمراض القلب والرئتين والمرارة والطحال .

المقالة التاسعة : (تسعة عشر باباً) تبحث فى أمراض الأمعاء (وبخاصة المغص القولونى (Colic) ، وأعضاء التبول والتناسل .

المقالة العاشرة : (ستة وعشرون باباً) وتتناول بالبحث الحميات الوقتية والدائمة والمستمرة ، الثلاثية والرباعية والشبيهة بالرباعية ، وتبحث فى التهاب البلورا ، ومرض الحمرة والجدرى ، والبحران Crisis والدلالات والأعراض الحسنة والسيئة ، وعلامات الموت .

المقالة الحادية عشرة: (ثلاثة عشر باباً) وتبحث فى الروماتزم ،والنقرس وعرق النسا ، والجذام ،وداء الفيل ، وداء الخنازير، وداء الذئاب، والسرطان، والخراجات ، والغنغرينة ، والجروح والرضوض والصدمة والطاعون . وتبحث الأبواب الأربعة الأخيرة فى شئون تشريحية بما فى ذلك عدد العضلات ، والأعصاب ، والأوعية الدموية .

المقالة الثانيةعشرة: (عشرون باباً) تبحث فى الفصد والحجامة والحمامات ، وما يدل عليه النبض والبول .

ويبلغ النوع الرابع خمسى الكتاب كله تقريباً ، ويقع فى ١٠٧ أوجه من ٢٧٦ ، ويحتوى على ١٥٢ باباً وعلى ذلك يكون كل باب منها قصيراً جداً ، ويقل غالباً عن صفحة واحدة ونادراً مايزيد على صفحتين . وليس فيه إلا محاولات قليلة تجووزت فيها حدود العلامات والأعراض الشهيرة الخاصة بكل مرض والعلاج الموصى به لكل منها ، ولا توجد به ، بقدر مارأيته بنفسى ، إشارة إلى حالات حقيقية أو ملاحظات إكلينيكية . والكتاب فعلا ، فيما عدا النوع الأول — الذى يتناول مفاهيم فلسفية عامة ، ويحتوى على بعض الآراء التى تستثير الاهتمام خاصة بنشوء العناصر الأربعة (الأرض ، والهواء ، والنار ، والماء) من الطبائع الأربع (الحرارة ، والبرودة ، والجفاف ، والرطوبة) ، واستحالتها — ليس إلا كراسة طبيب (Vade-mecum) ، وترجع أهميته إلى أنه من أوائل الكتب الطبية باللغة العربية الموجودة ، وأن مؤلفه هو الأستاذ الطبيب العظيم الذى سنتحدث عنه الآن .

وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى من أهالى الرى ومن هنا لقب بالرازى فى العربية ، وسماه لاتينيو العصر الوسيط رازس Rhazes ، ومن المحتمل أنه كان أعظم الأطباء المسلمين وأغزرهم إنتاجاً وأكثرهم أصالة . وتقع الرى حيث ولد على بعد بضعة أميال من طهران ، العاصمة الحديثة لفارس ، وكانت من أقدم مدن فارس ، إذ ذكر اسمها فى الأفستا Avesta [1] باعتبارها « راغا ذات

---

(١) Vendidad, Fargard'11'V'16

الأجناس الثلاثة « وهى الأرض الثانية عشرة من الأراضى الطيبة التى خلقها أهورا مازدا . وكان الرازى فى شبابه شغوفاً بالموسيقى ويجيد العزف على العود. ثم وقف نفسه على الفلسفة ، ولكنه كما يقول القاضى سعيد[1] « لم يتعمق الميتافيزيقا ولم يدرك الغاية منها ، ولهذا كانت أحكامه مضطربة واعتنق آراء لا يمكن الدفاع عنها ، وأيد مذاهب ملحدة ، ووجه النقد إلى قوم لم يفهمهم ، ولم يجرب طرائقهم» . وهو فى هذا نقيض ابن سينا على خط مستقيم، وهو الذى سنتكلم عنه وشيكا ، لأن ابن سينا كان فيلسوفاً خيراً منه طبيباً ، ولكن الرازى كان طبيباً أبرع منه فيلسوفاً .

وقضى الرازى ، كما يخبرنا ابن أبى أصيبعة ، معظم حياته فى فارس فقد كانت موطنه وكان أخوه وذوو قرابته يقطنون فيها . والذى أثار اهتمامه بالطب وهو فى سن النضج ، زيارات قام بها للمستشفى وأحاديث تداولها مع صيدلانى عجوز كان يعمل فى المستشفى . وأصبح فى النهاية كبير أطباء مستشفى الرى ، وكان يحضر فيه بانتظام محوطا بتلاميذه وتلاميذ تلاميذه . وكان هؤلاء هم الذين يقومون أولا بفحص كل مريض يتقدم طالباً العلاج ، أى كان يفحصه أولا أطباء الامتياز كما نقول الآن ، فإذا كانت الحالة عسيرة عليهم ، عرضت على تلاميذ الأستاذ المباشرين ، وأخيراً تعرض عليه هو إذا لزم الأمر . وبعد ذلك أصبح الرازى كبير أطباء مستشفى بغداد الكبير ، ويقال إنه استشير عند إنشائه فقد طلب إليه أن يختار أنسب منطقة لإنشائه ، ويقال إنه أشار بوضع قطع من اللحم معلقة فى أحياء مختلفة من المدينة ، واختار المكان الذى كان يحلل اللحم فيه أبطأ من غيره . وكان ، وهو فى فارس ،

---

(١) ابن أبى أصيبعة ، صفحة ٣١٤ جزء / ١ .

يتمتع بصداقة منصور بن اسحــق أمير خوراسان ورعايته ، وله ألف كتاب « المنصورى » والتواريخ الخاصة بحياته ليست مؤكدة ، ولا يقتصر الأمر على أن التواريخ التى حدثت لوفاته تتراوح بين ٩٠٣ ، ٩٢٣[1] ميلادية فحسب ، بل يقول بعض المؤلفين إنه اتصل بالبويهى العظيم عضد الدولة الذى حكم بين سنتى ٩٤٩ ، ٩٨٢ وأنشأ البيمارستان العضدى الذى يقال إن الرازى اختار المــكان الذى شيد فيه كما سلف القول ، وكان ذلك فى أخريات أيام حكمه .

وتتفق كل الروايات عن سيرته فى أنه أصبح كفيفاً فى أواخر أيام حياته نتيجة لإصابته بكاتاراكت وأنه رفض إجراء عملية له بحجة أنه لا يود أن يرى من الدنيا التى خاب فيها أمله ، فأصبح يمجها ، أكثر ممـا رأى . ويذكر سبب غير مباشر للعمى الذى أصابه ، هو أنه كان يشتغل بالــكيمياء ، التى نعرف مما كتبه القفطى وابن أبى أصيبعة أنه ألف فيها اثنتى عشرة مقالة . وأهدى إحداها إلى أحد السراة ، فأجازه بعطية كبيرة ، ثم أمره بأن يطبق علمه فى إنتاج الذهب فعلا ؛ فرفض الرازى واعتذر عن ذلك بمختلف الأعذار ، فاحتد عندئذ الرجل العظيم واتهمه بالغش والدجل وضربه على رأسه وتسبب عن ذلك أن كف بصره . ويؤكد بعض المؤلفين أنه خنق سراً لإخفاقه ؛ بينما يقول آخرون إن عماه يرجع إلى مغالاته فى أكل الفول الذى كان به مغرماً . وبالاختصار ، أراد المؤرخون له أن يعوضوا قــلة المعلومات التى يقدمونها عن حياته وتضاربها برواية أمثال تلك القصص العجيبة التى رويت حول فلاسفة العصور الوسطى

---

(١) نفس المصدر ، صفحتا ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ولكن المؤلف أعرب عن الرأى الصحيح فقال إن الرازى كان سابقاً على عضد الدولة ، وإن المستشفى الذى كان يعمل به سمى بالعضدى فى تاريخ لاحق .

الطبيعيين فى أوربا حيث كان كل طالب علم يسمو على عصره يتهم بأنه ساحر .

فإذا رجعنا إلى مؤلفات الرازى ، نكون ، أيا كان الأمر ، على أرض أكثر ثباتاً ، فليس هناك سبب للشك فى الثبت الذى يؤكده ثلاثة من أوثق المؤرخين لحياته، والذى يقال إن أساسه مذكرات المؤلف وأقواله « فالفهرست » وهو أقدم مصادرنا ، يعد له ١١٣ مؤلفاً كبيراً و ٢٨ مؤلفاً صغيراً فضلا عن قصيدتين من الشعر . وقد ضاع معظم هذه المؤلفات ، ولكن ما بقى منها فيه الكفاية لإمكان تقدير علمه ، وإن قل ما يمكن الحصول عليه منها إلا فى صورة مخطوطات . وأوسع مقالاته الطويلة الكثيرة شهرة فى أوربا هى رسالته عن الجدرى والحصبة والتى نشرت لأول مرة باللغة العربية مصحوبة بترجمة لاتينية قام بها شاننج Channing بلندن سنة ١٧٦٦ . وكان قد سبقها ظهور ترجمة لاتينية لهذه الرسالة فى فيينا سنة ١٥٦٥ ، كما ظهرت لها ترجمة إنجليزية قام بها جرينهل Greenhill نشرتها جمعية سيدنهام سنة ١٨٤٨ . وقد عرفت هذه الرسالة فيما مضى باسم الوباء de Peste وهى كما يقول نوبرجر Neuburger[1] « تعتبر حيث تكون حلية التأليف الطبى العربى وزينته » ، ثم يتابع كلامه قائلا « إنها تحتل مكانة عالية من الأهمية فى تاريخ علم الأوبئة باعتبارها أول مقالة عن الجدرى ، وهى تظهر الرازى فى صورة الطبيب ذى الضمير المتحرر من أسر الهوى ، والذى يسير فى الطريق الذى خطه أبو قراط » .

وقد نشرت رسالة أخرى للرازى (ليدن ١٨٩٦) عن حصى المثانة والكلى فى أصلها مع ترجمة فرنسية قام بها الدكتور ب . دى كوننج الذى نشر أيضاً

---

(١) ترجمة ارنست بلايفير Ernest Playfair المجلد الأول ، صفحة ٣٦٢ .

نص الجزء الخاص بالتشريح من كتاب الحاوى مع ترجمة له ومع الأجزاء المماثلة له من « كتاب الملكى » لمؤلفه على بن العباس ، وكتاب « القانون » لابن سينا ونحن مدينون لستينشنيدر Steineschneider بترجمة مقالات أخرى للرازى إلى الألمانية ، وبالأخص مؤلفه المسلى عن نجاح الدجالين والمشعوذين فى كسب شهرة بين الجماهير يغلب أن يحرم منها الأطباء المؤهلون المقتدرون[1] . وهناك مقالات أخرى غير التى سلف ذكرها من تأليف الرازى موجودة فى مختلف المكتبات العامة بأوربا والشرق ، فنجد مخطوطاً (Add 3516) حصلت عليه حديثاً ، عن طريق الشراء ، مكتبة جامعة كامبردج يحتوى على مقالات عن النقرس والروماتزم[2] ، وعن المغص القلونى[3] الذى ذكره القفطى .

وقد صنف الرازى ، فضلا عن مقالاته العديدة ، نحو ستة كتب عامة عن الطب هى الجامع ، والكافى ، والمدخل الكبير والصغير ، والملوكى الذى صنفه لعلى بن فيه — سودهان والى طبرستان ، والفاخر (ويبدو أن نسبة تأليفه للرازى غير متيقنة) ، وأخيراً وليس آخرا « المنصورى » الذى نشرت له ترجمة لاتينية سنة ١٤٨٩ ، « والحاوى » الذى نشرت له ترجمة لاتينية سنة ١٤٨٦ فى برشيا Brescia ثم فى فينيسيا سنة ١٥٤٢ . وهذه الترجمة نادرة جداً والنسخة الوحيدة فى كمبردج موجودة فى مكتبة كلية الملك[4] King's College

---

(١) مخطوطات فيرشو Virchow المجلد ٣٦ ، صفحات ٥٧٠ — ٥٨٦ .
(٢) صفحات ١١٠ — ١٤٢ .
(٣) صفحات ٤٨ — ٦٢ .
(٤) ورقمها هو Xv. 4.2.

وسيكون كلامى التالى عن « الحاوى » حيث إنه يفوق كل مؤلفات الرازى حجماً وأهمية .

ومما يؤسف له أن دراسة « الحاوى » تحوطها مصاعب من نوع خاص وليس ذلك لأنه لم يسبق نشره أبداً فى صورته الأصلية ، ولكن لأنه لا يوجد منه مخطوط كامل . والواقع أنى ، على قدر ما أعلم الآن أشك شكاً مطلقاً فى وجود أكثر من نصف هذا الكتاب فى الوقت الحاضر ، فى حين أن المجلدات الموجودة منه متفرقة فى شتى الأرجاء ، فثلاثة منها فى المتحف البريطانى ، وثلاثة فى البودليان ، وأربعة أو خمسة فى الإسكوريال ، وهناك مجلدات أخرى فى موسكو وبتروجراد (لينتجراد حالياً) ، وبعض الموجزات فى برلين . وزيادة على ذلك فإن بعض الشك يحوم حول عدد المجلدات التى يتكون منها الكتاب ومحتواها ؛ فبينما الفهرست[1] يعد اثنى عشر مجلدا فقط ، فإن الترجمة اللاتينية تتكون من ٢٥ مجلداً ، ولا اتفاق بينهما فى مادة الكتاب أو فى الترتيب . ويرجع بعض هذا الاضطراب بلا شك إلى أن الكتاب جمع بعد وفاة الرازى ، جمعه تلاميذه من ملاحظات لم تكتمل ، ومن رسائل تركها بعده ، تفتقر إلى وحدة الخطة واللمسات الأخيرة التى تصقل العمل والتى لا تستطيع القيام بها إلا يد المؤلف ، ويرجع البعض إلى أن هذا العنوان كان يطلق فيما يبدو على كتاب آخر من مؤلفاته الكبرى . وزيادة على ذلك فإن « الحاوى » نظراً لضخامة حجمه وللكم الهائل من التفاصيل التى يحتوى عليها ، كان يهول أشد النساخين كداً ومثابرة ، ولم يكن يقدر عليه إلا أكثر محبى الكتب غنى ، حتى إن علياً بن العباس الذى سأتحدث عنه بعد والرازى الذى ألف كتبه بعد الرازى بخمسين أو ستين سنة يخبرنا بأنه لم يعرف فى أيامه إلا نسختين

(١) صفحة ٣٠٠ .

كاملتين[1] . ونحن نجهل بكل أسف النسخة الأصلية التى نقلت عنها الترجمة اللاتينية كما نجهل مكان وجودها إن كان لها وجود ، حيث إن المترجمين فى العصر الوسيط لم يكونوا يتفضلون بذكر أمثال تلك التفاصيل . وكل ما أمكننى عمله لمواجهة كل هذه الصعوبات أن أفحص فحصاً سطحياً المجلدات الستة الموجودة فى مكتبتى المتحف البريطانى والبودليان . وأكبر هذه المجلدات أهمية وإفادة هو رقم ١٥٦ March 1956 فى المكتبة الثانية وبخاصة الأوجه من ٢٣٩ ب إلى ٢٤٥ ب التى تكرم الدكتور كولى Dr-Cowley والأستاذ مرجوليوث Prof-Margoliouth بالسماح لى بالحصول على صور لها .

وقد أسلفت القول بأن الرازى يبز كل أقرانه ، وذلك معترف به فعلا بصفة عامة عند جميع الثقاة فى هذا الموضوع ، باعتباره ملاحظاً إكلينيكياً . وحيث إن ملاحظات هؤلاء الأطباء « العرب » القدماء الإكلينيكية أعظم فائدة وأهمية من الباثولوجيا والفسيولوجيا التى كانوا يعرفونها وأصبحت هملا ، وأكثر فائدة من التشريح غير المباشر الذى كانوا يقومون به ، فمن المحتمل أن تكون دراسة مؤلفات الرازى بعناية وبخاصة كتابه الكبير « الحاوى » أكثر مجالات الدراسة عائداً التى يمكن لدارسى اللغة العربية المهتمين بالطب أن يقفوا أنفسهم عليها . وبعض الحالات الطبية المشهورة المثيرة التى لاحظها مدونة فى تلك المجموعات من القصص من أمثال كتاب « الفرج بعد الشدة » للتنوخى سنة ٩٩٤م الموضوع باللغة العربية ، والكتاب الفارسى شاهار مقالة » (المقالات الأربع) جمع نظامى عروضى السمر قندى ١١٥٥ ميلادية تقريباً .

---

(١) كتاب كامل الصناعة « الكتاب الملكى » طبع القاهرة ١٢٩٤ / ١٨٧٧ ، المجلد الأول ، صفحتا ٥ ، ٦ .

ويقول ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء »[1] « توجد قصص كثيرة وملاحظات شتى ثمينة للرازى عما حققه بمهارته فى صناعة الطب ، وما وصل إليه منفرداً فى مداواة المرضى ، وعن استنتاجه حالتهم بمهارته فى تقدمة المعرفة، بالتعرف على العلامات ، وإخباره عن الأعراض والعلاج ، مما لم يتوصل إليه إلا عدد قليل من الأطباء . وهو يقص كثيراً مما وقع له من هـذه الأمور وأشباهها التى يزخر بها كثير من كتبه » .

والصفحات الاثنتا عشرة من المخطوط الموجود فى مكتبة بودليان المشار إليه سابقاً (والمظنون أنه المجلد السابع من الحاوى ولـكنه أكثر توافقاً مع المجلد السابع عشر من الترجمة اللاتينية)[2] تحتوى على ملاحظات إكلينيكية مثل تلك المذكورة فى ابن أبى أصيبعة تماماً . وتقع تحت عنوان « أمثلة من قصص المرضى وحكايات لنا من خلط نوادر » وعدد الحـكايات المدونة أربع وعشرون وأسماء المرضى مذكورة كاملة فى العادة ، وكذلك الأعراض والعلاج والنتائج . وليس فهمها سهلا ، فالنص العربى يمثله مخطوط واحد فقط ، والأسلوب ،فيما عدا أخطاء النسخ الظاهرة ، متقبض واصطلاحى . والحالة الأولى ، التى أقوم بتفسيرها على قدر استطاعتى ، تصلح لتقديمها باعتبارها عينة .

« كان يأتى عبد الله بن سوادة حميات مخلطة ، تنوب مرة فى ستة أيام ومرة غب ، ومرة ربع ، ومرة كل يوم ، ويتقدمها نافض يسير ؛ وكان يبول مرات

---

(١) مجلد (١) صفحة ٣١١ .

(٢) الـكتاب السابع من الترجمة اللاتينية عنوانه De Passionibus cordis et epatis et splenis .

وعنوان الـكتاب السابع عشر (De effimerâet ethicâ (hectica?

كثيرة، وحكمت أنه لا يخلو من أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعاً ، وإما أن يكون به خراج فى كلاه . فلم يلبث إلا مديدة حتى بال مدة أعلمته أنه لا يعاود هذه الحميات ؛ وكان كذلك . وإنما صدنى فى أول الأمر عن أن أبت القول بأن به خراجاً فى كلاه أنه كان يحم قبل ذلك حمى غب وحميات أخر ، فكان للظن بأن تلك الحمى المخلطة من احتراقات تريد أن تصير ربعاً موضعاً أقوى، ولم يشك إلى أن قطنه فيه شبه ثقل معلق منه إذا قام، وأغفلت أنا أيضاً أن أسأله عنه ، وقد كانت كثرة البول تقوى ظنى بالخراج فى الكلى . إلا أنى كنت أعلم أن أباه أيضاً ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء ، وهو أيضاً قد كان يعتريه فى صحته . فينبغى ألا يغفل بعد ذلك غاية التقصى [1] إن شاء الله ، ولما بال المدة أكببت عليه بما يدر البول حتى صفا البول من المدة ، ثم سقيته بعد ذلك الطين المختوم والكندر ودم الأخوين ، وتخلص من علته ، وبرأ برءاً تاماً سريعاً فى نحو شهرين . وكان الخراج صغيراً ، ودلنى على ذلك أنه لم يشك إلى ابتداء ثقلا فى قطنه ، لكن بعد أن بال مدة قلت له هل كنت تجد ذلك ؟ قال نعم . فلو كان كثيراً لما كان يشكو ذلك ، وإن المدة التى تنبث سريعاً تدل على صغر الخراج . فأما غيرى من الأطباء فإنهم كانوا بعد أن بال مدة أيضاً لا يعلمون حالته البتة » .

وعلى الرغم من عديد الصعوبات اللفظية والمادية التى لم أستطع الوصول إلى حل لها يرضينى ، فإن طبيعة الحالة العامة تبدو واضحة تماماً . فالمريض كان يعانى

---

(١) فى الأصل « فينبغى ألا يغفل بعد ذلك غاية التقضى إن شاء الله » وهو تصحيف واضح راجع مقالة « تاريخ الطب عند العرب » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ؛ صفحة ٢٧٨ من المجلد ٣٢ سنة ١٩٤٩ من مجلة الجمعية الطبية المصرية . (المترجم)

من حمى متقطعة غير منتظمة يسبقها نافض خفيف ، وكان يشخص ويعالج فى بلد تـكثر فيه القشعريرة على أنه ملاريا،وإن كان أصله راجعاً فى الحقيقة إلى تعفن ، وقد أخذ الرازى نفسه بهذا الرأى ،ولـكنه بعد أن لاحظ وجود مدة فى البول، شخص الحالةعلى أنها التهاب بالـكليتين Pyelitis وعالجه بنجاح علىهذا الأساس.

ونصل الآن إلى الاسم الثالث فى الجدول وهو على بن العباس المعروف فى أوربا فى العصور الوسطى باسم « هالى عباس » الذى طبعت ترجمة كتابه « الملـكى » إلى اللاتينية التى قام بها « الفيلسوف ستيفن » مع شروح وتعليقات كتبها ميشيل دى كابيلا Michael de Capilla سنة ١٥٢٣ فى ليون .

والملاحظة التى ذكرها القفطى[١] عنه قصيرة إلى حد أنه يمكن ترجمتها كاملة .

« على بن العباس المجوسى (فهو من أتباع زوراوسترا) طبيب بارع كامل الصفات فارسى الأصل ، ويعرف بابن المجوسى . وقد درس على شيخ فارسى يعرف بأبى ماهر موسى بن سيار ، كما تابع دراسته بنفسه واطلع على كل ما كتبه القدماء . وقد ألف كتابه المسمى « الملـكى » للملك عضد الدولة البويهى[٢] وضمنه طريقته فى الطب ، وهو كتاب بديع وذخيرة تحتوى على علم الطب والتطبيب مرتبة خير ترتيب. وحظى الـكتاب بشهرة واسعة فى أيامه، وكان موضع دراسة جادة إلى أن ظهر كتاب ابن سينا « القانون » الذى اغتصب

---

(١) صفحة ٢٣٢ .

(٢) حكم فى المدة من ٩٤٩ إلى ٩٨٢ .

شهرته وتسبب فى إهمال « الملكى » إلى حد ما ، إذ إن « القانون » يمتاز فى الناحية العملية ، و « الملكى » متميز فى الناحية العلمية .

ولن يفيدنا « الفهرست » هنا ، إذ إنه ألف فى تاريخ سابق على الزمن الذى نتكلم عنه الآن. والمسألة الوحيدة الهامة التى أضافها ابن أبى أصيبعة[1] هى أن علياً بن العباس كان من أهالى الأهواز فى الجنوب الغربى من فارس ، وهى ليست على مبعدة من المدرسة التى كانت يوماً ما مدرسة جنديسابور الطبية العظيمة التى تكلمت عنها كثيراً فى المحاضرة السابقة . وتدل نسبته —المجوسى— على أن أباه أو جده كان يدين بديانة زوراوسترا الفارسية . ويشترك هو وشيخه أبو ماهر فى أنه لا هو ولا شيخه صنفا مؤلفات كثيرة ؛ «فالملكى» هو الكتاب الوحيد الذى ينسبه إليه مؤرخو حياته ، وإن كان بروكلمان[2] يذكر مخطوطاً فى جوثا Gotha يحتوى على مقالة طبية منسوبة إليه ، بينما يذكر لشيخه مؤلفان فقط ، مقالة فى الفصد ، وملحق بأحد كتب إسحق بن حنين اليدوية الصغيرة فى الطب العلمى .

ومع أننا لا نعرف عن سيرة على بن عباس أكثر من المعلومات البسيطة التى ذكرت تواً، ولا نعرف من تواريخه أكثر من أنه كان معاصراً لعضد الدولة المؤسس العظيم المثقف للمستشفى العضدى فى بغداد الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن العاشر ، فإن كتابه « الملكى » هو أسهل كتب الطب العربية العظيمة منالا وأكثرها صلاحية للقراءة ، إذ طبع فى القاهرة طبعة ممتازة فى

---

(١) المجلد الأول ، صفحات ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٢) Geschichte der Arabischen Litteratur, Vol-I- p 287.

مجلدين ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م ؛ ومن حسن الحظ أن الترجمة اللاتينية لهـذا الـكتاب وإن كانت نادرة فإنها ليست مدرجة ضمن الـكتب الممنوع إعارتها ، ولهذا فمن الممكن استعارتها من المـكتبات التى تضمها . ويتكون الأصل العربى من أربعمائة ألف كلمة (٤٠٠٠٠٠) وهو مقسم إلى ٢٠ مقالة ، كل منها مقسم إلى عدد كبير من الأبواب ، وتتناول المقالات العشر الأولى النواحى النظرية، أما المقالات العشر الأخرى فتتناول صناعة الطب . وقد نشرت المقالتان الثانية والثالثة اللتان تتناولان التشريح مع ترجمة فرنسية قام بها الدكتور ب . دى كوننج Dr. P. de Koning (ليدن ١٩٠٣) فى كتابه المسمى ثلاث مقالات فى التشريح العربى فى الصفحات من ٩٠ إلى ٤٣١. وتختص المقالة التاسعة عشرة بأكملها ، وتحتوى على ١١٠ أبواب ، بالجراحة[1] .

ومقدمة الـكتاب ، وتتألف من الأبواب الثلاثة الأولى من المقالة الأولى ، جيدة وممتعة حقاً ، وبخاصة نقده لـكتب الطب السابقة . ويخص ابن عباس بالدراسة من أطباء اليونان أبو قراط ، وجالينوس وأوريباسيوس ، وبول الأيجينى ، ومن الأطباء السوريين والمسلمين القس أهرون ، ويوحنا بن سيرابيون ، والرازى ، ويرى أن أبو قراط بالغ فى الإيجاز لذلك يكون غامضاً أحياناً ، وأن جالينوس بالغ فى الإفاضة . وينقد أوريباسيوس وبول الأيجينى لأنهما لم يتناولا التشريح والجراحة والفلسفة الطبيعية وباثولوجيا الأخلاط (Humoral Pathology)وعلم علل الأمراض وأسبابها بالبحث ،أو تناولاها بالبحث غير الوافى . ويحكم على ما ألفه أهرون وحده بالوفاء بالغرض الذى توخاه ،ولـكنه يشكو رداءة الترجمة العربيةوغموضها . ويقول عن ابن سيرابيون

(١) الصفحات من ٤٠٤ إلى ٥١٦ ، المجلد الثانى من طبعة القاهرة .

إنه يهمل الجراحة ، ويترك كثيراً من الأمراض الهامة دون ذكر ، ويحصيها ومن بينها تمدد الأوعية الدموية ، ويقول عنه أيضاً إنه يسيء ترتيب مادته وتنسيقها . وقد سبق لى أن أشرت إلى ملاحظاته عن ضخامة حجم كتاب « الحاوى » وإسهاب الرازى فيه مما جعله فوق قدرة الناس إلا واسعى الثراء، وأدى هذا إلى ندرة المخطوط منه ، حتى قبل أن ينقضى على وفاة المؤلف إلا زمن قصير ، ويرى أن « المنصورى » كتاب الرازى الآخر ، وشهرته تفوق شهرة « الحاوى » مختصر أكثر مما يلزم . ثم يأخذ بعد ذلك فى إيضاح خطة كتابه الذى حاول فيه أن يجد طريقاً وسطاً بين الإيجاز المخل والإسهاب ، ويقدم مما كتبه عن التهاب البلورا (Pleurisy) مثلا يوضح خطته . فهو يبدأ بتعريف المرض وأسبابه ، ثم يأخذ فى سرد أعراضه الأربعة الثابتة : الحمى ، والسعال ، والألم ،وسوء الهضم ؛ ويتناول بعد ذلك ما تدل عليه وبخاصة دلالات البصاق. ثم يختتم كلامه بذكر العلاج . والملاحظات التى ذكرها فى آخر هذا الباب عن أهمية المواظبة على الذهاب إلى المستشفى جديرة بالاقتباس[1].

«ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من الحذاق من الأطباء ، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، متذكراً لما كان قد قرأه من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر ، فإنه إن فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغاً حسناً . ولذلك ينبغى لمن أراد أن يكون طبيباً فاضلا أن يلزم

(١) الجزء الأول صفحة ٩. والفقرة المقابلة لهذه فى الترجمة اللاتينية تقع فى الجزء الاعلى من العمود الأيسر بالوجه ٧ من طبعة ليون سنة ١٥٢٣ ميلادية .

[والنص منقول من الأصل (طبعة القاهرة) المترجم]

هذه الوصايا ويتخلق بما ذكرناه من الأخلاق ولا يتهاون بها ، فإنه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب ، ووثق به الناس ومالوا إليه ، ونال المحبة والكرامة منهم والذكر الجميل ، ولم يعدم مع ذلك المنفعة والفائدة من قبلهم ، والله تعالى أعلم ».

وبمناسبة الكلمات التى اختتمت بها هذه الفقرة المقتبسة ، لعل الفرصة قد سنحت لذكر شىء عن الأجور التى تقاضاها واحد من أعظم الأطباء فى عهد الخلفاء العباسيين الأول وهو جبرائيل بن بختيشوع المتوفى سنة ٨٣٠ م . كان جبرائيل ، طبقاً لما رواه القفطى[1] يتناول مرتباً شهرياً من بيت المال قدره عشرة آلاف درهم ، ويتناول من الجيب الخاص خمسين ألف درهم فى أول كل سنة فضلا عن خلع تقدر قيمتها بعشرة آلاف درهم . وقد دفع له عن فصد الخليفة هارون الرشيد مرتين فى العام مائة ألف درهم ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه كل سنتين جرعة مسهلة . وكان يتناول من أشراف البلاط كل سنة أربعمائة ألف درهم نقداً وعيناً ، ومن عائلة البرامكة أربعمائة ألف ومليوناً من الدراهم . وطبقاً لحساب القفطى ، يكون مجموع ما تناوله عن هذه السبل كلها بخلاف ما تقاضاه من المرضى الخصوصيين الذين هم أقل منزلة من السابقين خلال ٢٣ سنة أمضاها فى خدمة هارون الرشيد وثلاث عشرة سنة أمضاها فى خدمة البرامكة ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم ، وهو ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات الاسترلينية ، هذا إذا ما وافقنا فون كريمر[2] Von Kremer على تقديره للدرهم بأنه يساوى فرنكا .

---

(١) صفحتا ١٤٢ ، ١٤٣

(٢) المجلد الأول صفحة ١٥ من كتاب **Culturgeschichte d. Orients**

وها قد جاء الآن دور الكلام عن أعظم الأطباء الفارسيين الأربعة شهرة وأعنى به ابن سينا ، وهو أبو على حسين بن عبد الله بن سينا المعروف بالشيخ الرئيس ، أو المعلم الثانى أى الثانى بعد أرسطوطاليس.وتقوم الصعوبة فى الكلام عنه فى اختيار ما يقال من بين الجم الذى يستأهل الذكر ، وذلك لأن العلم العربى يبلغ فى ابن سينا الفيلسوف ، والطبيب ، والشاعر ، ورجل الأعمال ذروته وكأنما تجسد فيه . وليس فى الإمكان ، فى الحدود المقدرة لى ، تعداد مؤلفاته الوفيرة فى الفلسفة والعلوم ، ولا أن أقص تفاصيل حياة أحتفظ لها بسجل دونه بنفسه حتى بلغ واحدة وعشرين سنة ، ولا يزال هذا السجل محفوظاً ، ثم تولى تسجيل ما بقى منها تلميذه وصديقه أبو عبيد الجرجانى . وكان أبوه إسماعيلياً من بلخ ، وكانت أمه من قرية قريبة من بخارى ، وكان مولده حوالى سنة ٩٨٠ م ، وعندما بلغ العاشرة كان قد حفظ القرآن وبرع فى الأدب العربى . ووقف نفسه خلال السنوات التالية على دراسة الشريعة الإسلامية ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية ، كما درس المنطق وأقليدس وإيساغوجى ، والمجسطى. ثم وجه عنايته فى السادسة عشرة من عمره إلى دراسة الطب، فوجد أنه « ليس من العلوم الصعبة » ، ولكن دراسة ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) سببت له اضطراباً حتى واتته فرصة طيبة فاقتنى كتاباً صغيراً دفع فيه ثمناً قليلا من تأليف الفيلسوف الشهير الفارابى فوجد فيه حل ما أشكل عليه . وما كاد عمره ينيف على الثامنة عشرة حتى كانت شهرته كطبيب قد بلغت حداً جعله يستدعى لعلاج نوح بن منصور سلطان سمانى (Samani) (الذى حكم من سنة ٩٧٦ إلى ٩٩٧ ميلادية ؛ وسمح له السلطان ، تقديراً لخدماته ، بالتردد على دار الكتب السلطانية كلما أراد ، وكانت تحتوى على كثير من الكتب النادرة بل الفريدة . وقد دمرت النيران هذه المكتبة بعد ذلك ولم يتورع

الناقمون على ابن سينا عن التأكيد بأنه هو الذى أشعل فيها النار عمـــداً حتى يكون ما أفاده منها من العلم وقفاً عليه وحده . وفقد ابن سينا أباه وهو فى سن الواحدة والعشرين ، وألف أول كتبه فى هذه السن تقريبا . والتحق بخدمة على بن مأمون حاكم خوارزم ، وظل عنده زمنا قصيراً ، ثم فر فى النهاية لتفادى محاولة السلطان محمود الغزنوى اختطافه . وبعد أن تنقل بين كثير من البلاد توجه إلى جرجان أغراه بذلك شهرة حاكمها الأمير قابوس بحب العـلم ورعايته له ، ولـكن خلع هذا الأمير واغتياله حدث فى نفس الوقت الذى وصل فيه ، وقد عبر عن المرارة التى أحس بها فى قصيدة ألفها بهذه المناسبة ، وفيها يقول :

لما عظمت فليس مصر واسعى   لما غلا ثمنى عدمت المشترى

إلا أنه وجد أخيراً ذلك المشترى فى شخص الأمير شمس الدولة الحمدانى الذى عالجه من مرض التهاب القولون (القولنج) فجعله كبير وزرائه . وعلى أثر ثورة عليه طرد وسجن ؛ ولـكن الأمير عاوده مرض القولنج بعد ذلك ، فاستدعاه واعتذر له ، وأعاده إلى مركزه . وكانت حياة ابن سينا فى ذلك الوقت مليئة بالنشاط ، فـكان يقضى نهاره كله مشغولا بخدمة الأمير ، فى حين يمضى جزءاً كبيراً من الليل فى إلقاء المحاضرات وإملاء مذكرات لـكتبه ، تتخلل ذلك فترات لشرب الخمر والغناء . وبعـــد أن تعاورته ظروف الدهر وتقلبات الزمان التى يحول ضيق الوقت دون سردها والتى دونها تفصيلا صديقه المخلص وتلميذه أبو عبيد الجورجانى ، لحق ابن سينا بربه فى سن مبكرة وقـد بلغ من العمر ٥٨ سنة ، وكانت وفاته سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٦ م وقد أنهكه العمل المتواصل

والحياة القاسية . ولم ينجح فى علاج نفسه فى مرضه الأخير حتى قال فيه الذين ينتقصون قدره إنه لا طبه أنقذ حياته ، ولن تنقذ فلسفته روحه[1] .

ومؤلفاته عديدة وهى فى كثير من الحالات ضخمة ، فبعض كتبه الكبرى تتكون من عشرين مجلداً أو نحوها . والبيان الكامل لهذه المؤلفات الذى أثبته القفطى [2] يتضمن ذكر ٢١ كتاباً كبيراً و ٢٤ كتاباً صغيراً فى الفلسفة ، والطب والإلهيات ، والهندسة ، وعلم الفلك ، وفقه اللغة وما شابهها . ومعظم هذه الكتب مكتوبة باللغة العربية . أما اللغة الفارسية ، لغته الوطنية ، فلم يكتب بها إلا كتاباً كبيراً واحداً فى العلوم الفلسفية يسمى دانيش نعمائى علائى (ويمثله مخطوط فى المتحف البريطانى)[3] ، ورسالة صغيرة عن النبض . والبيان الذى أثبته بركلمان . فى كتابه Geschichte der Orabischen Litteratur (الجزء الأول من صفحة ٤٥٢ إلى ٤٥٨) . والذى يتضمن الكتب الموجودة فقط ، أكثر شمولا من بيان القفطى ، ويشمل ٦٨ كتاباً فى الإلهيات وما بعد الطبيعة، و ١٦ كتاباً فى الطب ، و ٤ فى الشعر ومجموعها ٩٩ مصنفاً. وأشهر قصائده

(١) الأبيات المشار إليها ذكرها ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء المجلد الثانى صفحة ٦ وذكرتها فى ملاحظاتى على ترجمتى لكتاب «المقالات الأربع» (مسلسلة ذكرى E.J.W.Gibb المجلد ١١/٢ صفحة ١٥٦) :

وهى : رأيت ابن سينا يعادى الرجال وبالحبس(أ) مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجات

(أ) ويريد بالحبس انحباس البطن من القولنج ، وبالشفاء وبالنجات كتابى ابن سينا المسمين بهذين الاسمين) .

(٢) طبعة ليبرت ، صفحة ٤١٨ .

(٣) Or, 16, 830 انظر الكتالوج الفارسى لرو (Rieu) صفحات ٤٣٣ ، ٤٣٤ . وقد نبهنى المستر أ.ج.إليس A.G.Ellis إلى نسخة من هذا الكتاب مطبوعة على الحجر نشرت فى الهند سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م.

الشعرية العربية هى القصيدة التى تصف نزول الروح فى الجسم من المحل الأرفع الذى هو بيتها ، وهى قصيدة جميلة فعلا [1] وقد قمت بترجمتها فى كتابى التاريخ الأدبى فى فارس المجلد الثانى ، فى صفحتى ١١٠ ، ١١١ ،
Literary History of Persia.

وأدى البحث الجاد الذى قام به المرحوم الدكتور أتى Dr. Ethé فى كتب السير المتعددة إلى جمع ١٥ قطعة شعرية فارسية قصيرة ، معظمها رباعيات ، تتضمن ٤٠ بيتاً من الشعر منسوبة لابن سينا . وأشهر هذه الرباعيات وأحسنها تنسب غالباً ، ومن المحتمل أن يكون ذلك خطأ ، إلى عمر الخيام الذى يعزى خمس

---

(١) ومن قصيدة النفس المشار إليها .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى بمدامع تهمى ولما تقطع
وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها قفص عن الأوج الفسيح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
وبدت تغرد فوق ذروة شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنه برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

نقلا من كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة طبع بيروت ١٩٥٧ ، ص ١٥ و ١٦

رباعياته المشهورة على الأقل إلى غيره ، وتقدم على ذلك أدلة لها نفس القوة أو أقوى . والرباعية المقصودة هى الرباعية التى ترجمها فتزجيرالد . والأصل كما هو وارد فى كتاب « مجمع الفصحاء[1] » . نصه كما يأتى :

ازقعر كل سياه تا أوج زحل كردم همه مشكلات كيتى راحل

بيرون جستم قيد هر مكر وحيل هربند كشاده شد مكربند أجل

ومعناها نقلا عن الترجمة الإنجليزية :

مرتفعاً من مركز الأرض نافذاً من الباب السابع

قمت ، وعلى عرش زحل تربعت ،

وفى الطريق كثير من العقد حلت ،

إلا العقدة الكبرى ، عقدة مصير الإنسان ،

ونصف كتب ابن سينا فى الطب ، أى ثمانية هى رسائل شعرية فى موضوعات من أمثال العلامات الخمس والعشرين التى تدل على أن المرض سيفضى إلى الموت ، والحكم المتعلقة بعلم الصحة ، والأدوية المجربة ، ومذكرات فى التشريح ، وما شابه ذلك . وقد نشرت فى الشرق رسالة أو رسالتان منها ولكنى لم أرهما . وأنا على أى حال أظن أن قيمتها سواء باعتبارها شعراً أو باعتبارها علماً تافهة . ولعل رسالته عن « الأدوية القلبية » التى يوجد منها فى المتحف البريطانى عدد من المخطوطات القديمة الجيدة ، هى بعد كتابه العظيم « القانون » أهم مؤلفاته النثرية ولكنها بقيت بلا نشر ، ولا يمكن الوصول إليها

---

(١) المجلد الأول صفحة ٦٨

خارج جدران المتحف وجدران قلة غيره من دور الكتب العامة الكبرى[1] .

وكتاب « القانون » هو أكبر كتب ابن سينا حجماً ، وأعظمها شهرة ، وهو فى نفس الوقت أقربها منالا فى أصله العربى وفى ترجمته اللاتينية التى قام بها جيرارد الكريمونى Gerard of Cremone . وتوجد طبعة مصرية حديثة للنص العربى ، بجانب الطبعة الرومانية التى صدرت فى سنة ١٥٩٣ ، والترجمة الفينيسية الدقيقة إلى اللاتينية التى نشرت فى سنة ١٥٤٤ ، ويحتوى الكتاب على أقل قليلا من مليون من الكلمات، وهو كمعظم الكتب العربية، مقسم بإحكام إلى أقسام وفروع . وهو مقسم أساساً إلى خمسة كتب ، يبحث أولها فى المبادئ العامة ؛ والثانى فى العقاقير المفردة حسب حروف الهجاء ؛ والثالث فى الأمراض التى تصيب جوارح خاصة من الجسم وأعضاء معينة من الرأس إلى القدم ؛ ويبحث الرابع فى الأمراض التى وإن كانت جزئية ومحلية فى أول أمرها إلا أن بها جنوحاً إلى الانتشار فى أجزاء أخرى من الجسم ، كالحميات ؛ أما الخامس فيبحث فى الأدوية المركبة . وهذا الوصف قاصر جداً فى الواقع ، إذ إن الكتاب الرابع لا يبحث فى الحميات وحدها بل تناول أيام البحران ، والإنذارات ، والأورام ، والخراجات والقروح، والكسور والخلع ، والسموم .

وكنت قد اعتزمت مناقشة هذا الكتاب العظيم الشهير بإضافة أكثر مما يسمح به الوقت الذى تحت تصرفى فى يومنا هذا ، ولكن الأمر أصبح قليل الأهمية ، وذلك أن الكلية قد شرفتنى بدعوتى مرة ثانية لإلقاء محاضرتى فيتزباتريك فى السنة القادمة ، وعند ذلك سأعود إلى مناقشة هذا الكتاب

---

(١) برلين ، وغوطه ، وليدن ، والاسكوريال .

مع الموضوعات التى سأعالجها حينئذ . فإن ما يتمتز به هذا الكتاب من اتساع المعارف ، وتنسيق فى الترتيب ، وفلسفة فى التخطيط ، وربما صيغته التقريرية اليقينية ، مقترناً هذا كله بشهرة مؤلفه المستفيضة فى ميادين أخرى غير ميدان الطب ، وضعته فى منزلة فريدة بين المؤلفات الطبية فى العالم العربى ، حتى أصبحت كتب الطب السابقة التى ألفها الرازى والمجوسى على الرغم من مزاياها التى لا شك فيها ملغاة من الناحية العملية بعد وجوده ؛ ولا يزال معتبراً فى الشرق عند من يتلقون « الطب اليونانى» القديم المرجع الأخ فى كل مايتصل بشئون التطبيب . وللبرهنة على ما قررته هنا ولبيان الاحترام البالغ الذى تبوأه ابن سينا فى أعين الناس ، سأستشهد فى ختام كلامى بعبارة من الكتاب الظريف « المقالات الأربع » ، وهو مؤلف باللغة الفارسية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى عن أربعة صنوف من الناس هم : الوزراء ، والشعراء ، والمنجمون ، والأطباء ، وهؤلاء هم المعتبرون عند المؤلف نظامى عروضى السمرقندى ، ألزم الناس لخدمة الملوك . فبعد أن ذكر المؤلف أسماء عدد من الكتب التى ينبغى أن يدرسها بجد من يطمع إلى نيل منزلة عالية فى الطب ، يقول إن من يرغب فى التحرر من كل المؤلفات الأخرى يكفيه دراسة كتاب « القانون » ، ويتابع كلامه قائلا[1] :

---

(١) والعبارة المقتبسة تقع فى صفحتى ٧٠ ، ٧١ من كتاب « المقالات الأربع » المنشور سنة ١٩١٠ ضمن سلسلة ذكرى E.J.W.Gibb المجلد ١١ ، وفى صفحتى ١١٠و١١١ من الفصلة التى أعيد طبعها من ترجمتى التى نشرتها فى ١٨٩٩ فى مجلة « الجمعية الأسيوية الملكية» ، Jonrnal of the Royal Asiatic Society أماق ترجمتى الجديدة المراجعة التى ستظهر قريباً باعتبارها المجلد الحادى عشر من سلسلة جب فتقع فى الصفحتين ٧٩ ، ٨٠

« إن رب العالمين وهادى الجنسين الأصليين جعل[1] « كل الصيد فى جوف الفرا » . وهذا كله وكثير غيره موجود فى القانون ، ولن يغيب عمن درس المجلد الأول منه شيء يتعلق بنظرية الطب العامة ومبادئه بل لو أن أبوقراط وجالينوس عادا إلى الحياة لكان صواباً أن يكون هذا الكتاب موضع احترامها. إلا أنى سمعت شيئاً عجباً ، ذلك أن إنساناً شذ فى تقديره لكتاب على بن سينا هذا ، وضمن نقده كتاباً أسماه « تقويم القانون » . وكأنما نظرت إلى الاثنين معاً ، وتبينت لى حماقة المؤلف ، وبشاعة كتابه ، إذ كيف يسوغ إنسان لنفسه أن يخطئ مثل هذا الرجل العظيم ، إذ كان السؤال الأول الذى يقابله فى أى كتاب يقع عليه من كتبه يصعب عليه فهمه ؟

لقد ظل قدامى الأطباء طوال أربعة آلاف سنة يشقون على أنفسهم ويحملون أرواحهم أقصى العناء لكى يخضعوا علم الفلسفة لنوع من النظام ثابت ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ؛ حتى إذا انقضت تلك الأعصر جاء ذلك الفيلسوف الخالص أرسطوطاليوس أعظم المفكرين ، فوزن هذه النقود بميزان المنطق ، وقدر معدنها بمحك التعاريف ، وضبط قياسها بمعيار القياس ، حتى زال عنها كل زيف وشك ، فقامت على قاعدة ثابتة محكمة . ومضت منذ ذلك الوقت خمسة عشر قرناً من الزمان لم يصل خلالها أى فيلسوف إلى أغوار الحقيقة فى فلسفته، ولم يقتسم الطريق الصاعد إلى الأعالى ليبلغ ذروتها سوى هذين المتميزين

---

(١) (ذكرت هذه العبارة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى فى أصل المحاضرة ، وهو غلط كبير) .

المجددين فيلسوف الشرق ، برهان الله للناس « أبو على حسين بن عبد الله بن سينا » . ولذلك فإن أى إنسان يخطىء هذين الرجلين العظيمين يحكم على نفسه بالخروج من زمرة العقلاء ، والانتماء إلى زمرة المجانين ، ويكشف عن أهليته لصاحبة الحمق دون سائر الناس .

وندعو الله أن يجنبنا بفضله ونعمته أمثال هذه العثرات والتردى فى الضلالات » .

المحاضرة الثالثة

لعله من الخير قبل أن أتابع الحديث فى موضوع هذه المحاضرات أن أفرض على نفسى أن أستعيد معكم فى إيجاز النقاط الأساسية التى حاولت أن أقررها فى محاضرتى اللتين شرفت بإلقائهما عليكم فى العام الماضى . لقد أوضحت أن مصطلح « الطب العربى » (وأفضل منه مصطلح « الطب الإسلامى ») لا يبرره إلا نظرنا إلى اللغة التى استخدمت فى نقله ، والرعاية التى نشأ فى ظلها ؛ كما أوضحت أن الطب العربى كان مركباً تألفت مكوناته المختارة من أساليب أبعد فى القدم ، أكثرها يونانى ، وأقلها هندى ، وفارسى قديم ، مشربة بغيرها من الأساليب العتيقة التى لا يسهل التعرف عليها ، وأن طب الشعب العربى فى وقت بعث نبيهم (صلى الله عليه وسلم) ، أى فى أوائل القرن السابع الميلادى كان من نمط بدائى جداً ، واستمر كذلك . وأشرت فى هذه المناسبة إلى ملاحظات الدكتور زويمر فى كتابه « بلاد العرب ، مهد الإسلام » ويجب على الآن أن أضيف مرجعاً جديداً هو كتاب صغير هام جداً (نشر فى القاهرة سنة ١٨٩٢ و ١٨٩٣) ألفه باللغة العربية طبيب مصرى ، هو عبد الرحمن أفندى إسماعيل ، وموضوعه الطب الشعبى ، والخرافات الطبية التى يصدقها مواطنوه من الرجال ، كما أن نساءهم أكثر تصديقاً لها . وهذا الأسلوب ، إن جاز أن

يدعى أسلوباً يسمى « طب الركة »[1] ويعادل هذا الطب إلى حد ما « طب الزوجات العجائز» [عند الأوربيين][2] ، والمؤلف يتناوله بالقدح الشديد البالغ، ويعتبر بقاءه إلى وقتنا الحاضر فى بلد كمصر ، المفروض أنها على صلة بالثقافة الحديثة ، أمراً منكراً .

وقمت بالتمييز بين عصرين فى تطور الطب العربى بمعناه الواسع ، وأعنى بذلك عصر اقتباس الطب اليونانى القديم والتوفيق بينه وبين الأسلوب العام للحضارة والعلوم الذى أقامه علماء الإسلام ومفكروه بطريق الانتقاء خلال « العصر الذهبى » للخلافة فى بغداد ، أى من منتصف القرن الثامن الميلادى فصاعداً ، وهو عصر ترجمة فرائد الكتب الطبية اليونانية إلى العربية ، وهى الكتب التى قدر لها أن تكون أساساً لدراسات تالية ، والثانى عصر الأطباء الذين يتكلمون العربية أو الذين يكتبون بها على أى حال (وكان كثير منهم يهوداً ، ونصارى ، وصابئين ، بل وكان منهم أتباع لزورواسترا) ، الذين قاموا ، بعد مراجعة هذه المادة وتعديلها فى ضوء خبراتهم الذاتية ، بتصنيف كتب فيها من الاستقلال شىء كثير أو قليل . وتحدث باختصار عن أربعة من أشهرهم، ازدهروا فى فارس بين سنة ٨٥٠ ، وسنة ١٠٣٦ م ، وهى السنة التى توفى فيها أبو على بن سينا المعروف فى الغرب بأفيسينا Avicenna أما الثلاثة الآخرون فهم على بن ربن مؤلف « فردوس الحكمة » للخليفة

---

(١) وللعلم بكلمة الركة ، التى يبدو أنها مستعارة من اللفظة الإيطالية rocco ؛ راجع ملاحظة هامة أبداها فوللرز Vollers
فى المجلد ٢١ من كتابه .Z.D.M.G (١٨٩٧) ، صفحة ٣٢٢

(٢) ملاحظة المترجم .

المتوكل سنة ٨٥٠ م ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، المعروف فى أوربا فى العصر الوسيط بالرازس Rhazes ، وعلى بن العباس المجوسى الذى سماه البربريون اللاتينيون فى العصور الوسطى بهالى عباس Haly Abbas ووصفت باختصار أربعة من أشهر ما كتب هؤلاء الأطباء الأربعة العظام ، وهى كتاب « فردوس الحكمة » (الذى ظل ، نظرا لندرته البالغة ، مهملا غير مدرج فى الفهرسين العربيين للمتحف البريطانى ومكتبة برلين) ، وكتاب « الحاوى » ، وكتاب «كامل الصناعة» أو «الملكى» وكتاب «القانون» لابن سينا. وعبرت زيادة على ذلك عن اتفاقى مع نوبرجر وباجل Neuburger, Pagel وغيرهما من مؤرخى الطب ، فيما يرونه من أنه على الرغم من أن الشهرة التى حازها ابن سينا أوسع ، فإن الرازى بفضل ملاحظاته الإكلينيكية (وبعضها محفوظ لنا فى مجلد مخطوط من « الحاوى » موجود بمكتبة البودليان[1]) من حقه أن يكون أعلى الأربعة قدراً ، وربما أعلى الأطباء الذين خرجهم الإسلام كافة فى القرون الثلاثة عشر التى عاشها . ولو كان الوقت القصير المتاح لى يسمح، لعدت مسروراً إلى الكلام عن كتابه هذا ، وكتب الأطباء الثلاثة الآخرين الذين ذكرتهم تواً ، ولكن أموراً أخرى تتصل بتاريخ الطب فى العالم الإسلامى وما ألف فيه ومنزلته تتطلب الاهتمام الأول ، حتى يمكن الإلمام بالميدان كله قبل محاولة ملء التفاصيل .

وقد سلف القول بأن المسلمين كانوا الناقلين الأمناء للعلم اليونانى القديم ولم يكونوا خلاقين لأسلوب جديد . وقد عبر وذنجتين Withington عن هذه

---

(١) March 156 أوجه ٢٣٩ ب إلى ٢٤٦ أ .

الحالة أحســن تعبير فى كتابه الصغير المختار « التاريخ الطبى »[1] بحيث لا أستطيع أن أفعل خيراً من الاستشهاد بكلماته ، فهو يقول بعد أن وصف فتوحات العرب المدهشة فى القرن السابع « وأعقب إظهار هذا النشاط البدنى نشاط عقلى لا يقل عنه روعة . وقد أثار دهشة أحد أباطرة بيزانطة أنه وجد بين الشروط التى أملاها بربرى منتصر أن يكون له حق جمع وشراء مخطوطات يونانية ، وأنه وجد أن خير هدية يمكن أن يقدمها لشيخ من شيوخهم أظهر له الود هى نسخة مصورة من ديوسقوريدس . وإذا كان فلاسفة قسطنطينية أذهلهم أن حضر إليها مؤلفون مسلمون كسبوا على مضض إعجابهم فسموهم «المتوحشين العلماء » فإن المسيحيين قليلى الثقافة سرعان ما رأوا فى حكمة العرب شيئاً يفوق قدرة البشر . وكان هؤلاء القوم هم الذين انتزعوا من أيدى خلفاء جالينوس وأبو قراط الضعفاء شعلة الطب اليونانى المتذبذبة فحالوا على الأقل دون خمودها وإن عجزوا حينذاك عن أن يردوا إليها وهجها السابق ، ولـكنهم سلموها بعد خمسة قرون أشد اشتعالا مما كانت عليه » .

على أن القول بأن التسليم تم بعد « خمسة قرون » فيه مبالغة إذ بينما كان ابن سينا لا يزال فى أوج حياته، ولد فى شمال إفريقيا ــ ومن المحتمل أن يكون ذلك فى تونس ــ رجل لا يعرف عن تاريخه وحياته إلا القليل ، عرف باسم قسطنطين الإفريقى ، ولـكن قدر له أن يشتهر باعتباره أول من عرف أوربا الغربية بعلوم العرب متخذا اللغة اللاتينية[2] واسطة لذلك ، التحق بمدرسة

---

(١) المطبعة العلمية « Scientific Press » لندن ١٨٩٤ ، صفحات ١٣٨ — ١٣٩.
(٢) انظر المجلد ٣٧ (صفحات ٣٥١ — ٤١٠) من مخطوطات فيرشو Virchow (برلين ١٨٦٦) ففيها مقالة عن أعماله بقلم أشهر المستشرقين الأعلام Moritz Steinschneidey

سالیرنو الطبية الشهيرة Civitas Hippocratica ، وتوفى سنة ١٠٨٧ تقريباً فى مونت كازينو بعد حياة حافلة بالنشاط الأدبى ، قبل وفاة العالم والمترجم الشرقى جيرار الكريمونى الذى يفوقه شهرة . وتدين أوربا فى العصر الوسيط لهذين المترجمين وللطبيب اليهودى فرج بن سليم الذى أتم ترجمة كتاب « الحاوى » للرازى فى سنة ١٢٧٩ بمعظم علمها الطبى العربى .

ومع ذلك فقد كان انتقال الأفكار بين الشرق والغرب يتم بسبل أخرى غير السبل الأدبية . وأياكان مبلغ المرارة التى يستشعرها الجانبان المنغمسان فى الحروب الصليبية من الشدة ، فإنه مما يدعو إلى العجب أن تحدث بينهما اتصالات ولقاءات ودية كثيرة فى فترات الصدام بين الصليبيين وخصومهم العرب . ومن بين الأقاصيص التى يغلب عليها الجفاف التى حفظت لنا ، وجعلها م . هارتويج ديرينبورج M.Hartwig Derenbourg فى متناول اليد فى أصلها العربى مع ترجمة فرنسية[1] المذكرات الكاشفة التى تركها الأمير العربى أسامة بن منقذ ، الذى عاش فى سوريا فى القرن الثانى عشر وقضى معظم حياته يحارب الإفرنج . وقد ولد أسامة سنة ١٠٩٥ أى فى نفس السنة التى استولى فيها الصليبيون على أنطاكية وبيت المقدس وتوفى فى سنة ١١٨٨ م . وقد حدث الاتصال بينه وبين الإفرنج فى فترة ركود مؤقتة فى الحرب بين سنتى ١١٤٠ و١١٤٣ . وهو فى مذكراته المسلية التى تتناول موضوعات متعددة يناقش الكثير من عاداتهم وصفاتهم التى يتميزون بها والتى رأى فيها مايعجب وما يسلى ، ويقص من بين الموضوعات الكثيرة التى يرويها قصصاً عديدة

(١) ليرو Leroux ، باريس ، ١٨٨٦ — ١٨٩٣ .

غريبةعن ممارستهم للطب[1] . فمنها ، أن عم أسامة ، أرسل إلى المحافظ الإفرنجى لقلعة منيطرة بلبنان بناء على طلبه طبيبه النصرانى ثابت ليعالج بعض الأشخاص الذين ألزمهم المرض الفراش . وبعد عشرة أيام رجع ثابت ، فقوبل بالتهنئة على نجاحه السريع فى مداواة مرضاه . فقال رداً على هذه التهنئات إن الأمر على أى حال لا يدعو إليها ، فقد قدموا إليه عند وصوله مريضين ، رجلا يشكو من دملة فى رجله وامرأة مريضة بذات الرئة . فأخذ فى معالجتهما الأول باستعمال اللبخات والثانية بالغذاء المناسب والأدوية . وكانت صحتهما تتقدم بحالة مرضية وإذا بطبيب إفرنجى يتدخل مقرراً أن العلاج المتبع لاجدوى منه ، واتجه إلى الرجل سائلا إياه : أى الأمرين أحب إليه أن يموت برجلين أو يعيش برجل واحدة . فأجاب المريض مفضلا الأمر الثانى ، وعلى ذلك استدعى الطبيب الإفرنجى فارساً قوياً معه فأس وأمره بقطع ساق الرجل بضربة واحدة . ولكن الفارس فشل ، وعند الضربة الثانية سال مخ الساق من العظم ومات الرجل فوراً . ثم وجه الطبيب الإفرنجى التفاته إلى المرأة ، وبعد أن فحصها أعلن أن شيطاناً يسكنها ، وأن مكانه فى رأسها ، وأمر بإزالة شعرها وأن تعاود تناول الطعام العادى الذى يتناوله زميلاتها ، وهو الثوم والزيت . ولما ساءت حالها ، صنع علامة على هيئة الصليب فى رأسها بأن شقها شقاً عميقاً حتى ظهر العظم ومرخ فى الجرح ملحاً ، وإذ ذاك أسلمت المرأة أيضاً روحها . وختم ثابت روايته قائلا «وبعد هذا ، سألتهم إن كانوا لا يزالون فى حاجة إلى خدماتى، ولما أجبت بالنفى عدت إلى بيتى ، وقد تعلمت من طريقة تطبيبهم ما لم يكن لى به علم حتى ذلك الحين » .

---

(١) وهذه القصص موجودة فى الصفحات ٩٧ — ١٠١ من النص العربى ، وصفحات ٤٩١ — ٤٩٤ من الترجمة الفرنسية .

ويروى أسامة قصة أخرى شبيهة بهذه نقلا عن غليوم دى بورز Guillaume de Bures [1] الذى صاحبه فى سفر من عكا إلى طبرية . قال غليوم « كان عندنا فارس قوى البأس فى بلادنا ، مرض وأشرف على الموت . وكلجأ أخير قصدنا إلى قسيس نصرانى ذى شأن عظيم ، لنعهد إليه بالمريض قائلين « تعال معنا لتفحص الفارس فلان » فوافق وسار معنا ، وكنا نعتقد أنه ما يكاد يضع يده عليه حتى يشفى . وعندما رأى القسيس المريض قال « أحضروا لى شمعاً » . فأحضرنا له بعضاً منه ، فلينه وعمل منه سدادتين مثل عقدة الأصبع ، ووضع واحدة منهما فى كل من فتحتى الأنف ، فمات عند ذلك . فصحنا قائلين « إنه ميت » . فأجاب القسيس « نعم » ، كان يتعذب ، فسددت أنفه حتى يموت ويستريح » .

ويمكننا أن ندرك أن الطب الإفرنجى كان يبدو فى نظر العرب فى ذلك الوقت بربرياً وبدائياً جداً بالنسبة إلى طبهم ، فليس عجيباً إذن أن يفضل أسامة ، عند ما نزلت به فى شايزار نازلة برد شديدة مصحوبة بنافض ، أن يعالجه طبيب عربى هو الشيخ أبو الوفاتيم ولا يلتجىء إلى طبيب إفرنجى [2] إلا أنه ، تحريا للعدل مع الإفرنج، يروى حالتين نجح فى معالجتهما أطباء من الإفرنج . واحدة منهما تتعلق بشخص يسمى برنارد أمين خزانة الكونت فولك دانجو Count Foulques d' Anjou الذى يصفه أسامة بأنه « واحد من أكثر الإفرنج استحقاقاً للعنة وأشدهم لؤماً وخبثاً،وكان يتمنى له الموت ويدعو له به» [3].

---

(١) نفس المصدر ، النص الأصلى ، صفحة ١٠١ وصفحة ٤٩٤ فى الترجمة .

(٢) نفس المصدر صفحة ١٣٧ من النص ، وصفحة ٤٩١ من الترجمة .

(٣) نفس المصدر صفحة ٩٨ من النص ؛ وصفحة ٤٩٢ — ٤٩٣ من الترجمة .

والثانية تتعلق بطفل مريض بداء الخنازير هو ابن لصانع عربى يسمى أبو الفتح[1] وكان الأول يشكو من إصابة فى ساقه نتيجة لرفسة من حصانه تسببت فى أربعة عشر جرحاً تعسرت على البرء إلى أن أزال الطبيب الإفرنجى الذى استشير أخيراً كل الدهانات والضمادات التى وضعت على الجروح ، وغسلها بمحلول قوى من الخل ، ونتيجة لهذا العلاج برأت الجروح تدريجياً « وشفى المريض » كما يقول أسامة « وقام كالعفريت » ، أو كما نقول نحن مستعداً لكل شر جديد . أما الصبى المريض بداء الخنازير فقد نقله أبوه إلى أنطاكية حيث كان له عمل هناك ، وأثار شفقة أحد الإفرنج الذين قابلهم مصادفة ، فقال لوالد الطفل « أقسم لى بدينك أننى إذا أفضيت إليك بعلاج يشفى ابنك ، فإنك لا تتقاضى أجراً من أى إنسان قد تعالجه به ، وأنا أكتب لك تذكرة به » فأعطاه العهد الذى طلبه ، فأعلمه أن يأخذ صودا غير مطحونة ثم يضعها على النار ويخلطها بزيت الزيتون وخل قوى ، ثم يضع من المخلوط على الخراجات الخنزيرية الموجودة فى رقبة الطفل ، ثم يتبع هـذا بوضع ما يسميه أسامة « الرصاص المحترق » مخلوطاً بالزبد والشحم . وتروى القصة أن الطفل شفى ، وأن هذا العلاج نفسه استعمل بنجاح بعد ذلك فى حالات أخرى .

والقصص سالفة الذكر ليست هى كل الأخبار الطبية فى هـذه المذكرات الهامة ، إذ إن فيها قصصاً عن طبيب نصرانى عربى غير مستفيض الشهرة يسمى ابن بطلان المتوفى سنة ١٠٦٣ ألف عدداً كبيراً من الكتب الطبية (أحصاها ليكليرك[2] وبروكلمان[3]) . وطبعت ترجمة لاتينية لأشهر هذه الكتب وهو

(١) نفس المصدر صفحة ٩٨ — ٩٩ من النص ، وصفحة ٤٩٣ — ٤٩٤ من الترجمة .
(٢) تاريخ الطب العربى المجلد الأول ، صفحات ٤٨٩ — ٤٩٢ .
(٣) كتاب تاريخ الأدب العربى Gesch d. Arab Litt الجزء الأول ، صفحة ٤٨٣

« تقويم الصحة » وسميت الترجمة Tacuini Sanitatis طبعت فى ستراسبورج سنة ١٥٣١ . وتوجد نسخة من هذا الكتاب ضمن المخطوطات العربية فى هذه الكلية . والتحق ابن بطلان فى أثناء أسفاره الواسعة ، بعض الوقت ببطانة الجد الأكبر لأسامة فى شايزار ، ويسجل مؤلفنا بعض القصص التى لا يزال يتداولها أهل البيت عن ابن بطلان وكان إذ ذاك فى مطالع شبابه . وتروى إحدى هذه القصص عن رجل مريض أيس ابن بطلان من برئه ، ثم قابله بعد ذلك سليماً معافى من علته . وقال الرجل رداً على الأسئلة التى وجهت إليه عن العلاج الناجع الذى ثبت نجاحه إن أحداً لم يحاول أن يخفف من آلامه عدا أمه التى كانت تعطيه كل يوم قطعة من الخبز مغموسة فى خل كانت تأخذه من قدر . فطلب ابن بطلان أن يرى القدر ، وأفرغ ما بقى فيه من خل ، فاكتشف فى قاع القدر ثنتين من الحيات وقعتا فيه وتحللتا تحللا جزئياً وذابتا فيه . فقال ابن بطلان « يابنى ما كان لأحد أن يتولى علاجك بشراب من الحيات محلولة فى الخل إلا الله القدير ذو الجلال »[1] .

وفى مرة أخرى قصد رجل إلى حيث يجرى ابن بطلان عملياته فى حلب يشكو بحة وفقدان الصوت فقداناً تاماً ، وأجاب عندما سئل عن صناعته إنه ناخل للتراب . فأجبره ابن بطلان على شرب رطل من الخل القوى ، وفور ذلك أصابته نوبة من القىء وأخرج مع الخل كمية من الطين وعقب ذلك سلك حلقه وعاد صوته طبيعياً . وقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه الذين كانوا حاضرين « لا تعالجوا أحداً بهذا الدواء وإلا قضيتم عليه . أما هذا الرجل فإن بعض تراب المنخل التصق بمريئه ، وليس إلا الخل يقدر على زحزحته »[2] .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٥ من الأصل ، وص ٤٨٨ — ٤٨٩ من الترجمة .
(٢) نفس المصدر ، صفحتا ١٣٥ — ١٣٦ من الأصل ، وصفحة ٤٨٩ من الترجمة .

وقد سبق لى أن لاحظت أن الاهتمام الذى كانت تلاقيه الموضوعات الطبية فى العالم الإسلامى فى العصر الوسيط كان عاماً . وكان جميع النوادر من أكثر فروع الأدب شيوعاً فى العربية والفارسية على السواء ، وكانت القصص التاريخية وشبه التاريخية تصنف تحت عناوين ملائمة . وغالباً ما كان يخصص فى مثل تلك الكتب قسم للطب والأطباء . ومع أن المادة المتاحة لنا عن هذا السبيل لم تحظ بعناية كبيرة إلى الآن فإنها تبدو جديرة ببعض الاهتمام .

ومن الكتب العربية القديمة من هذا النوع ، كتاب اسمه « الفرج بعد الشدة » تأليف القاضى أبى على التنوخى المولود سنة ٩٣٩ والمتوفى سنة ٩٩٤ . وهذا الكتاب طبع بالقاهرة فى مجلدين سنة ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ، ويتكون من ١٤ باباً ، العاشر منها (من صفحة ٩٤ إلى ١٠٤ من المجلد الثانى) يتناول حالات عجيبة جديرة بالنظر ويحتوى على ١٥ قصة ، بعضها تافه أو يدعو للاشمئزاز ، بينما البعض الآخر عظيم الأهمية . ومن هذه القصص اثنتان ستكونان أول ما أعنى به ، إذ هما تتعلقان بالطبيب العظيم أبى بكر محمد بن زكريا الرازى الذى تكلمت عنه فى العام الماضى فى المحاضرة الثانية من محاضرتى ، وكان معاصراً للمؤلف تقريبـاً .

وأول هاتين القصتين[1] عن رجل فى عنفوان الشباب من أهل بغداد قصد إلى الرازى يشكو من قىء دموى . ولم يؤد الفحص الدقيق إلى معرفة السبب أو تفسير الأعراض . فيئس المريض لاعتقاده أنه حيث يفشل الرازى

---

(١) الجزء الثانى ، صفحة ٩٦ والقصة مذكورة أيضا فى كتاب ابن أبى أصيبعة الجزء الأول ، صفحتا ٣١١ و ٣١٢ .

فلا نجاح لغيره . وقد أثر فى الرازى يأس المريض وثقته به فأخذ يتحرى منه عن المياه التى شربها فى رحلته ، فتحقق لديه أن مصدر الماء كان فى بعض الحالات مستنقعات راكدة . فقال للمريض « إذا جئت فى غد فسأعالجك ولن أتركك حتى تبرأ بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعونى فى كل ما آمرهم به خاصاً بك » .
وأخذ المريض على نفسه العهـــد المطلوب ، وعاد الرازى فى اليوم التالى ومعه وعاءان مملوءان بعشب مائى يسمى بالعربية طحاب ، وبالفارسية جاما — ئى — جوك أوياشم — ئى — وازغ[1] (معطف الضفدع أو صوف الضفدع) وقال له ابلع مافى الوعاءين . فبلع المريض قدراً كبيراً ثم قال إنه لا يستطيع أن يزيد على ما فعل ، عند ذلك أمر الرازى الغلمان أن يمسكوه ويلقوا به على ظهره ويفتحوا فمه ، وأخذ يدس فيه من هذه المادة المقززة للنفس ، واستمر على ذلك حتى غلب المريض القىء . وأدى فحص القىء إلى الكشف عن علقة هى مصدر العـــلة وبطردها استرد المريض صحته . وهذه القصة نفسها مدونة فى مجموعة القصص الفارسية التى ألفها « عوفى » الذى سأتحدث عنه بعد قليـــل ، وفيها زيادة أن العلقة لما بلعت ودخلت جوفه مع الماء الذى شربه التصقت بفم المعدة وظلت هناك حتى حملت على التحول من مكانها إلى مكان أحب إليها هو العشب المائى .

وفى القصة الثانية[2] يظهر الرازى وهو يصف حالة من حالات الاستسقاء أصيب بها صبى قام والده باستشارته فى أمره وكان هـــذا فى بسطام ، وهى بلد

---

(١) تعرف عليه أخوندو Achundow (صفحتا ٢٣١ ، ٢٨٣) على أنه Lemna Herbatentis Palustris وهو ما سماه ديوسكوريدس Dakos ويعرف باسم Wasserlinde بالألمانية . ويسمى اليوم عند الفارسية جول — ئى — وازاغ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة صفحتا ١٠٣ — ١٠٤ الجزء الثانى ، وصفحة ٣١٢ من الجزء الأول من طبقات الأطباء .

يقع فى الشمال الشرقى من فارس ، وهو مار بها فى طريق عودته بعد أن عالج أمـــير خراسان العلاج المشهور[1] ، وهو الأمير الذى ألف له « الـكتاب المنصورى » . وأعلن الرازى أن الحالة ميئوس منها ونصح الوالد بأن يدع ابنه يأكل ما يشاء ويشرب ما يشاء . وعاد الرازى إلى نفس البلد بعد اثنى عشر شهراً ، وكم كان عجبه لما رأى الصبى قد عادت إليه صحته . وقيل له ، جواباً عن سؤاله عن الـكيفية التى حدث بها هذا ، إن الصبى مدفوعاً بيأسه من استرداد صحته ورغبته فى وضع حد لوجوده ، رأى يوماً حية كبيرة تقترب من إناء به مضيرة (نوع من الحساء يعد باللبن الحامض) كان موضوعاً على الأرض وتشرب قليلا منه ثم تنفث من فمها فيما بقى منه ، فتغير لونه بعد قليل . وفـكر الصبى فى وضع حد لحياته بهذا الخليط المسموم فتناول قدراً كبيراً منه ، فنام عقب ذلك نوماً عميقاً ، واستيقظ من نومه وقد غمره عرق غزير ، ووجد نفسه بعد أن أسهل إسهالا شديداً وقد زايله الاستسقاء وعادت إليه شهيته .

وقصة ثالثة شبيهة بالقصة السالفة ، رواها رجل يسمى أبو على عمر بن يحيى العلوى[2] عن رفيق فى الحج من أهل الـكوفة كان يشكو من مرض الاستسقاء وكان قطاع الطرق من البدو قد استولوا على جمله وأسروه . وفى يوم من الأيام دخل آسروه إلى الـكوخ الذى كان يقيم فيه ومعهم بعض الحيات التى أمسكوا بها وشرعوا يشوونها ويأكلون منها بعد أن قطعوا رءوسها وأذنابها . وسألهم أن يعطوه شيئاً من هذا الطعام الذى لم يألفه ، فأعطوه فأكله ، وإذا به بعد أن

(١) وهو ، منصور بن اسحق بن أحمد ، عامل الرى . ارجع الى ترجمتى للمقالات الأربع فى سلسلة ذكرى جب ، عدد ١١ ص ١٥٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة ، الجزء الأول صفحة ١٠٠ .

مرت به نفس الأعراض التى مرت بالمريض السابق الذكر ، يجد نفسه مثله وقد برئ من مرضه .

وقصة رابعة [1] عن صبي كان يقاسي آلاماً شديدة واختلاجات فى المعدة لم يعرف لها سبب ولم يعثر على دواء لها ، مع أنه فحص بمعـــرفة كثيرين من أطباء الأهواز الواقعة فى الجنوب الغربى من فارس ، وهى بلدة معروفة تقـــع بالقرب من مدرسة جند يسابور الطبية التى كانت ذات شهرة مستفيضة فى سالف الأيام والتى تحدثت عنها فى محاضرة سابقة . وأخيراً أعيد إلى بيته ، حيث قام أحد الأطباء المارين ببلدته ، لم يذكر اسمه ، باستجوابه استجواباً دقيقاً فكشف أن بداية مرضه ترجع إلى يوم أكل فيه رماناً كان مخزوناً فى حظيرة للأبقار . وأحضر الطبيب للمريض فى اليوم التالى حساء مصنوعاً من لحم كلب صغير سمين وأمره أن يتناول منه أكبر قدر ممكن ، دون أن يخبره عن حقيقته . وبعد ذلك أعطاه كمية من البطيخ ، ثم بعد ساعتين أعطاه بيرة ممزوجة بالماء الساخن ثم أخبره بالطريقة التى أعد بها الحساء . عند ذلك أحس المريض بجيشان نفسه ، وكشف الطبيب فيما أخرجـــه المريض من قىء « شيئاً أسود يشبه نواة البلح يتحرك » ، وقـــد ثبت أنها قرادة من قراد الغنم أو الماشية وجدت طريقها إلى الرمانة التى تصادف أن أكلها الصبى ، فلصقت بجدار معدته ، ولم يحملها على مغادرة مكانها، كما فعلت العلقة فى قصة سابقة ، إلا أن قدم لها طعام أشهى إلى نفسهـــا .

وحالة مريض آخر بالاستسقاء موضوع القصة الخامسة من هذه القصص . إذ أعلن أطباء بغداد ، بعد أن جرعوه مختلف الأدوية ، أنه لاعلاج له ، فطلب

---

(١) نفس المصدر ، صفحتا ٩٦ ، ٩٧ من المجلد الثانى

أن يؤذن له بتناول ما يشاء من الطعام والشراب ولا يترك لكى «تقتله الحمية» كما قال . وفى يوم من الأيام رأى رجلا يبيع جراداً مطهياً ، فاشترى منه كمية كبيرة وأكلها . فحدث له على أثر ذلك إسهال شديد استمر ثلاثة أيام ، بلغ فى نهايتها من الضعف حداً يئس معه من حياته ، ولكنه استرد صحته تدريجياً ، وشفى نهائياً من الاستسقاء . واستطاع فى اليوم الخامس أن يخرج ، فخرج فقابل طبيباً من الأطباء الذين سبق لهم أن فحصوه فتعجب لشفائه وسأله عن ذلك . فلما سمع منه قصته قال له « لم يكن هذا جراداً عادياً ، وأود أن تدلنى على الرجل الذى باعه لك » . فلما وجد البائع وسئل ، قال إنه جمع الجراد من قرية تبعد عن بغداد بضعة أميال ، وصحب إليها الطبيب مقابل مكافأة بسيطة . ووجد الطبيب الجراد فى حقل ينمو فيه عشب يسمى مظهريون (تعرف عليه شليمر وأخندو Schlimmer and Achundow على أنه Daphne oleoides المعروف بالقربيون أو الشبرم) وهو معروف بفائدته فى علاج الاستسقاء إذا أخذ بجرعات صغيرة ، ولكن من الخطر جداً وصفه على نحو عام[1] على أن ماحدث لهذا العشب من نضج مضاعف فى أجسام الجراد خفف من قوته فأصبح فى هذه الحالة مفيدا تماماً .

وتحتوى قصص أخرى من هذا الكتاب الذى لا أجد لدى وقتاً كافياً لمتابعة الكلام عنه ، على علاج لداء السكتة بالضرب بالسياط ، وعلاج ذات الجنب بلسع العقرب ، وعلاج الشلل بمغلى الحنظل فى اللبن .

(١) انظر كتاب القانون لابن سينا (طبعة روما ١٥٩٣) صفحة ٢٠٥ ، والترجمة اللاتينية (البندقية ١٥٤٤) صفحة ١٤٧ ، حيث يقال إن درهمين من « الميزريون » كافية لقتل الإنسان . والكلمة فى الكتاب « البرهان القاطع » والكتاب « فرهانج — ئى — ناصرى » بالزارى بدلا من الذال .

ومجموعة القصص الفارسية التى أشرت إليها فيما سبق جمعها محمد عوفى سنة ١٢٣٠ وتسمى « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » . وهو كتاب ضخم مكون من أربعة مجلدات ، كل واحد منها به ٢٥ باباً ، لم ينشر مطلقاً إلى الآن ؛ ولكنى أمتلك لحسن حظى مخطوطاً كاملا من الكتاب ، ومخطوطاً آخر للجزء الأول . والباب العشرون من هـذا الجزء يختص بالأطباء ويحتوى على تسع قصص ، أربع منها مأخوذة من كتاب التنوخى « الفرج بعد الشـدة » الذى وصفته من قبل . ولم يذكر الرازى إلا فى قصة واحدة من الخمس الأخرى ، كان فيها يعالج مريضاً من مرض انسداد الأمعاء بإعطائه درهمين من الزئبق . وليس فيما بقى من القصص ما يستحق الاهتمام إلا قولا مأثوراً وإلا قصة واحدة . أما القول المأثور ، فقد وجهه طبيب لا يعرف اسمه إلى مريض إذ قال له « اعلم أننا أنا وأنت والمرض ثلاثة بيننا تضاد متبادل . فإذا انحزت إلى جانبى ، ولم تهمل ما آمرك به فامتنعت عن تناول ما أحرمه عليك من الطعام فسنكون حينئذ اثنين ضد واحد وسنتغلب على المرض »[1] . أما القصة فتتعلق بأرسطوطاليس وطبيب هندى اسمه « سربات » أو « سرناب » — قصده مستخفياً ليتتلمذ على يديه ليدرس طرقه فى العلاج ، ولكنه أبان عن حقيقته فى مرحلة دقيقة من مراحل إجراء عملية تربنة لمريض — وهى حكاية سخيفة عن دودة من ألفية الأرجل ، دخلت أذن المريض والتصقت بالمخ . والنقطة الباعثة على الاهتمام فى هذه القصة أن أرسطوطاليس قبل بدء العملية «أعطاه دواء فغاب عن وعيه» . ولم أقابل فى المؤلفات الفارسية إشارة إلى التخدير إلا مرة سابقـة على هذه ،

---

(١) نسبت هذه الحكمة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » إلى أبو قراط إذ دخل أبو قرط على عليل فقال : أنا وأنت والعلة ثلاثة ، فإن أعنتنى عليها بالقبول منى لما تسمع صرنا اثنين ، وانفردت العلة فقوينا عليها . والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه (المترجم) .

وذلك فى الفقــرة المشهورة من كتاب « الشاهنامة » أو كتاب الملوك « للفردوسى »[1] ، (وهو مؤلف فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى) التى يشرح فيها العملية القيصرية التى أجريت لرضابة أم رستم عند ولادته ، وإن كان الخمر هو الذى استعمل فى هذه الحالة لإحداث الغيبوبة ، وكان الذى أجرى العملية واحداً من الموبذان وهم كهان زورا وسترا .

ويمدنا كتاب فارسى آخر يسمى « المقالات الأربع » ألفه شاعر من بلاط سمرقند يسمى نظامى عروضى حوالى سنة ١١٥٥ ، بمادة صالحة لغرضنا الحالى أغزر مما يمدنا به الـكتابان اللذان سلف الكلام عنهما . ومؤلف هذا الـكتاب يتناول أربع طوائف من الخبراء يعتبرها لا غنى عنها فى أى بلاط حسن التـكوين ، وهى طائفة الوزراء ، والشعراء ، والمنجمين ، والأطباء ؛ ذلك لأن واجبات الملوك لا يمـكن أن تؤدى بغير وزراء أكفاء ؛ ولأن انتصاراتهم وفتوحاتهم لا تخلد بغير شعراء بلغاء ؛ ولأن مشروعاتهم لن يكون النجاح نصيبها إلا إذا اختار الوقت الموافق لتنفيذها منجمون حكماء ؛ أما الصحة أساس كل سعادة ونشاط فلا يمـكن المحافظة عليها إلا بإشراف أطباء بارعين جديرين بالثقة . ولهذا فـكل مقالة تتناول واحدة من هذه الطبقات بترتيب ذكرها . ويروى المؤلف ، بعد ذكر ملاحظات مبدئية عن المؤهلات الضرورية للنجاح فى المهنة موضوع الحديث ، عدداً من القصص (عشراً فى العادة) توضح آراءه . ولهذه القصص قيمة خاصة نظراً إلى أن معظمها مستفاد من ذكرياته وتجاربه . وقبـل عشرين سنة قمت بنشر ترجمة كاملة لهذا الـكتاب فى « مجلة الجمعية الأسيوية

(١) طبع تورنر ماكان Turner Macan المجلد الأول ، صفحتا ١٦٢ ، ١٦٣ .

الملكية »[1] ؛ وبعد عشر سنوات أعد نص محقق للكتاب مصحوب بملاحظات فارسية ، أعده أحد أصدقائى الفارسيين من العلماء هو ميرز محمد خان القزوينى،نشر فى سلسلةذكرى «E.J.W. Gibb»[2]؛ وأنا الآن أشتغل فى إعداد ترجمة مراجعة مشروحة مع توجيه اهتمام خاص إلى القصص الطبى . ولما كان الحصول على هذا الكتاب أصبح الآن ميسوراً إلى حد ما فقد أصبح من غير الضرورى أن أطيل الكلام عنه ، وسأقصر كلامى على المقالة الرابعة التى تتناول الأطباء فأذكر ملاحظات قليلة عنها .

يقول المؤلف «ينبغى للأطباء أن يكونوا ذوى مزاج رقيق وطباع سلسلة ، وأحلام راجحة ، وأن يكونوا بصفة خاصة دقيقى الملاحظة ، قادرين على أن يفيدوا كل إنسان بالتشخيص المضبوط ، أعنى بسرعة الاستنباط للمجهول من المعلوم . ولن يستطيع طبيب أن يكون رقيق المزاج إذا تعسر عليه أن يتعرف نبل الإنسان ؛ أو أن يكون ذا طبيعة فلسفية راجح الحلم إلا إذا كان على علم بالمنطق ؛ أو أن يكون دقيق الملاحظة إلا إذا استمد القوة من هدى الله ؛ أما من يكون غير صادق الملاحظة فلن يستطيع الوصول إلى فهم أسباب أى علة فهماً صحيحاً .

وبعد أن توسع فى هذا البحث ، وروى حالة رجل عليل شفى بالصلاة ، وضع المؤلف ثبتاً مفيداً بالكتب التى ينبغى لمن يتطلع إلى التفوق فى العلوم الطبية أن يقرأها ، وهى تتراوح بين « الأقوال المأثورة » لأبو قراط والمقالات

(١) يولية وأكتوبر سنة١٨٩٩ . والفصلة التى طبعت ، وقد نفذت الآن ، تبلغ مع الفهرست ١٣٩ صفحة .

(٢) المجلد الحادى عشر من هذه السلسلة ، وقد طبع سنة ١٩١٠ . والترجمة المراجعة المشروحة ، وهى الآن فى المطبعة ، ستكون المجلد الحادى عشر ، ٢ ، من هذه السلسلة نفسها.

الست عشرة لجالينوس وبين « الذخيرة » الطبية التى صنفها لشاه خوارزم سيد إسماعيل الجرجانى منذ عشرين أو ثلاثين سنة فقط . ثم يختم البحث بقوله « ولكن إذا أراد الدارس أن يستقل عن الكتب الأخرى ، فلتكتف « بقانون » ابن سينا ؛ والمؤلف يضع ابن سينا فى الدرجة التالية لأرسطوطاليس ، ويمدحه بأبلغ العبارات باعتباره المفكر الوحيد الذى وصل خلال خمسة عشر قرناً إلى أبعد أعماق روح الفلسفة الأرسطوطالية وسار مصعداً فى طريق سلفه العظيم .

والقصص التى سأرويها فيما بعد من طراز يختلف عن القصص التى رويتها من قبل ، فلن نجد شيئاً من الحكايات الغريبة عن الغزو الطفيلى غير الطبيعى ، ولا عن فوائد العلاج بالحيات والجراد . وسنجد ، من جهة أخرى ، أن موضوع أربع على الأقل من هذه القصص سيكون عن الطرق الأولية للعلاج النفسى ، وأن قصصاً عديدة منها أصبحت جزءاً من الأدب الفارسى العام ، وحتى من الشعر ، وبهذا اكتسبت شهرة مستفيضة . ولنأخذ أولا قصتين من أشهرها ، حيث استغلت عاطفتا الغضب والخجل على التوالى فى علاج إصابات روماتزمية فى المفاصل .

دعى الرازى الطبيب العظيم إلى ترانسوكسيانا ليعالج الأمير منصور الذى كان يشكو من أمراض روماتزمية فى مفاصله أعجزت كل من عاده من الأطباء . فلما وصل إلى نهر أوكسس هاله اتساعه وصغر القارب الذى دعى للنزول فيه وما يبدو من عدم وثاقة بنيانه ، فأبى أن يستمر فى طريقه ، ولكن رسل الملك أوثقوا يديه ورجليه وألقوا به فى القارب ، وهكذا عبروا به النهر عنوة ، وإن

اتسمت معاملتهم له فيما عدا ذلك بالاحترام الكامل ، واعتذروا له من استعمال القسوة ورجوه ألا يحمل لهم فى نفسه ضغينة . فأكد لهم الرازى أنه لا يحمل لهم فى نفسه كرهاً ، وشرح لهم دافعه إلى المقاومة قائلا « إنه يعرف أن آلافاً من الناس تعبر نهر أوكسس كل عام بأمان ، ولكن لو أنه غرق لقال الناس كم كان محمد بن زكريا أحمق وهو يعرض نفسه مختاراً لخطر الغرق . أما وقد عبرتم بى النهر عنوة ، فسيشعر الناس نحوى بالعطف لو أنى هلكت ، بدلا من إلقاء اللوم على»

ولما وصل إلى بخارى جرب طرقاً عديدة لعلاج الأمير دون أن ينجح . وقال له آخر الأمر « سأجرب فى غد طريقة جديدة ، ولكنها ستكلفك خير حصان وخير بغل فى حظيرتك» . ووافق الأمير ووضع الحيوانين تحت تصرفه . وفى اليوم التالى ذهب الرازى بالأمير إلى حمام ساخن خارج المدينة ، وربط الحصان والبغل خارجه بعد أن أسرجهما وألجمهما . ثم دخل الحجرة الساخنة وحده مع مريضه الذى وضعه تحت الدش الساخن عدة مرات وسقاه جرعة كان قد أعدها « ليسقيها له » كما يقول الراوى « عندما يجىء الوقت الذى تنضج فيه الأخلاط التى فى مفاصله » . ثم خرج ولبس ثيابه ، ودخل ثانية وفى يده سكين، ووقف برهة يشتم الأمير قائلا « لقد أمرت أن أقيد وأن ألقى فى القارب ، متآمراً بذلك على حياتى ، وإن لم أقتلك عقاباً لك على هذا فليس اسمى محمد ابن زكريا ، فغضب الأمير غضباً شديداً وثارت ثائرته وهب واقفاً على قدميه مدفوعاً بالغضب من جهة والخوف من جهة أخرى » . فأسرع الرازى بالفرار من الحمام وقصد إلى حيث كان غلامه ينتظره فى الخارج مع الحصان والبغل ، وركب حصانه وانطلق به راكضاً بأقصى سرعة ، ولم يتوقف فى هربه حتى عبر

نهر أوكسس ووصل إلى مرو ، ومن هناك كتب إلى الأمير يقول : [1]

« أطال الله حياة الملك متمتعاً بالصحة والسلطان لقد بذلت فى علاجك أقصى ما لدى من قدرة وفقاً لما تقتضيه مهنتى . ولكن نظراً لنقص الحرارة عندك كانت مدة العلاج ستطول إلى حد بعيد ، لهذا عدلت عن العلاج الطويل إلى العلاج النفسانى ، ولما تعرضت الأخلاط الفاسدة للحرارة فى الحمام الساخن إلى الحد الكافى ، أثرتك عامداً حتى أزيد فى حرارتك الطبيعية ، وبذلك اكتسبت من القوة ما يكفى لإذابة الأخلاط التى كانت قد لانت. ولكن ليس من الخير أن نتقابل بعد الآن » .

ولكن الأمير ، وقد خفت حدة غضبه ، وسره أن رأى صحته عادت إليه وأصبح قادراً على الحركة ، أمر بأن يبحث عن الطبيب فى كل مكان ، ولكن دون جدوى . فلما كان اليوم السابع عاد الغلام ومعه الحصان والبغل والخطاب المنقول بعاليه . ونظراً إلى أن الرازى أصر على عدم العودة ، فقد كافأه الأمير بخلعة سنية من ثوب وعباءة وعمامة ، ومنحه سلاحاً ، وعبداً وأمة ، وجواداً مطهماً ، وأجرى عليه رزقاً سنوياً قدره ألفا دينار ذهباً ومائتا حمل حمار من القمح .

وهذه القصة مروية فى كتاب فارسى مشهور من كتب الأخلاق اسمه « أخلاق الجلالى » ألف بعد كتاب « المقالات الأربع » بثلاثمائة سنة . والمريضة فى القصة الثانية التى أضعها فى نفس النوع امرأة من أهل بيت الملك ،

---

(١) لقد اختصرت الخطاب قليلا وقمت بإجراء تعديل فيه ، على أن ترجمته الحرفية موجودة فى صفحة ١١٧ من الفصلة التى طبعت من ترجمتى المنشورة فى Journal of the Royal Asian Society وفى صفحة ٨٤ من الترجمة المراجعة التى ستصدر قريباً .

كانت منحنية وهى تعد المائدة وأحست فجأة « بورم روماتزمى فى المفاصل» ، فلما أرادت أن تعتدل وجدت نفسها عاجزة عن ذلك. واستدعى طبيب الملك وأمر بأن يداويها (ولم يذكر اسم الطبيب) ، ولما لم يجد فى متناوله أدوية، لجأ إلى «تدبير نفسانى » فأزال أولا خمارها ، ثم نطاق ثوبها مستنجدا بشعور الخجل الذى « بعث فيها وهجاً من الحرارة » كما يقول المؤلف « أذاب الأخلاط الروماتزمية « فوقفت منتصبة القامة وقد شفيت تماماً . وقد أعاد رواية القصة الشاعر الكبير جامع الذى ذاع صيته حوالى آخر القرن الخامس عشر ، فى كتابه « سلسلة الذهب » ولكن ، مما هو بالغ الأهمية ، أن ميرزا محمد خان وجد هذه القصة فى مخطوط من تصنيف ابن سينا هو « المبدأ والمعاد » وهو كتاب نادر لم ينشر ولا بد أن يكون مؤلف « المقالات الأربع » نقل القصة منه[1] وظاهر أن ابن سينا كان يرى القصة صادقة ، وإن كان هو أيضاً لم يذكر اسم الطبيب ؛ واكتفى بأن ذكر أنه كان فى خدمة أحد الأمراء السامانيين الذين عاشوا فى خراسان وترانسوكسانيا فى القرن العاشر .

وفى القصتين التاليتين نجد أن ابن سينا مرة أخرى بطل الحادثتين . وذلك أنه قدم متخفياً إلى جرجان (وهى هركانيا القديمة) على ساحل بحر قزوين ، وهو يحاول الهرب من السلطان محمود الغزنوى ، وكان أحد أقارب حاكم جرجان طريح الفراش مريضاً بداء أعيا جميع الأطباء المحليين . ودعى ابن سينا ، وإن لم تكن شخصيته قد عرفت بعد ، لعيادته وإبداء رأيه ، وبعد أن فحص المريض طلب معاونة شخص عليم بكل نواحى البلاد ومدنها . وكان

(١) انظر صفحة ٧٣ من النص ، وصفحة ٢١٢ من الملاحظات المدونة فى المجلد ١١ من سلسلة ذكرى J. W. Gibb

هذا الشخص يذكر أسماءها بينما كان ابن سينا واضعاً أصبعه على نبض المريض . فلاحظ عند ذكر اسم بلدة معينة خفقة فى نبض المريض ، فقال « أنا الآن فى حاجة إلى شخص يعرف كل أحياء هذه البلدة وشوارعها وبيوتها » . ولاحظ عند ذكر اسم شارع معين تكرر الظاهرة السابقه ثم مرة أخرى عند ما ذكر اسم ساكنة من سكان منزل بعينـــه . وحينئذ قال ابن سينا « لقـــد انتهيت ، فالصبى يحب فتاة اسمها كذا تقطن فى منزل كذا فى شارع كذا فى بلدة كذا ، ووجه الفتاة هو دواء المريض » . فعقد له عليها فى ساعة موافقة اختارها ابن سينا ، وهكذا تم علاج المريض .

ومرجعنا فى هـذه القصة ، أو على الأقل فى ملامحها الأساسية هو خير المراجع ، وهو ما كتبه ابن سينا نفسه فى « القانون[1] » فى القسم الخاص بالعشق المدرج فى الأمراض العقلية أو أمراض المخ مع مرض النوم ، والأرق ، وفقدان الذاكرة ، والجنون ، والصرع والميلانخوليا وأشباهها . وليس من السهل التعرف على هذا القسم فى الترجمة اللاتينية[2] تحت عنوانه الموضوع له وهو De ilixi والعنوان الفرعى المغاير Alhasch وهذان اللفظان الشنيعان يراد منهما أن يمثلا اللفظة العربية « العشق » . ويقول ابن سينا بعـد وصف الأعراض وبخاصة عدم انتظام النبض ، « وبهذا يمكن التوصـل إلى معرفة شخصية المحبوب ، إذا لم يفصح عنها المريض ، وتكون هذه المعرفة إحدى سبل العلاج . والتدبير الذى يمكن به الوصول إلى هذا هو ذكر أسماء كثيرة ، ويعاد ذكرها بينما يكون الأصبع موضوعاً على النبض فإذا أصبح غير منتظم

---

(١) انظر صفحة ٣١٦ من الكتاب العربى المطبوع فى روما ١٥٩٣ . ويروى ابن أبى أصيبعة (المجلد الثانى صفحة ١٢٨) قصصا تشبه هذه شبها شديدا عن جالينوس وعن راشد الدين أبى حالقة .

(٢) فينيسيا ١٥٤٤ ، وجه ٢٠٨ ب .

ويكاد يقف ، ينبغى أن تكرر العملية . وقد جربت هذه الطريقة مرات عديدة ، وكنت أكتشف اسم المحبوب . ثم بعد ذلك ، أذكر أسماء الشوارع بنفس الطريقة وكذلك المنازل والحرف والصناعة والعائلات والأقطار مقترنة بذكر المحبوب ، مع جس النبض طول الوقت ، حتى إذا ما تغير عند ذكر اسم من الأسماء عدة مرات ، نستنتج من هذا كل ما يتعلق بالمحبوب من حيث اسمه ومظهره ، ومهنته . لقد جربنا بأنفسنا هذه الطريقة وتوصلنا بها إلى معارف قيمة . وحينئذ إذا لم تكتشف علاجاً إلا أن تجمع بين الاثنين بالرباط الذى يقره الدين والقانون ، فافعل . وقد شاهدنا حالات عادت فيها الصحة والقوة تماماً وزاد فيها وزن الجسم ، بعد الهزال الشديد ، وبعد آلام المرض المزمن القاسى ، وبعد طول نوبات الحمى الناجمة من ضعف القوة نتيجة للعشق والوله ، إذا ما جمع بين المريض ومحبوبه . وفى وقت قصير جداً ، حتى إننا عجبنا لذلك وتحقق لنا خضوع الطبيعة (البشرية) للتخيلات الذهنية » .

ونجد إشارة أخرى إلى هذا العلاج فى موسوعة طبية متأخرة سبق أن أشرت إليها هى « ذخيرة خوار زمشاه » المصنفة بين سنتى ١١١١و١١٣٦ ميلادية ، وترجع أهميتها إلى أنها أول كتاب كبير فى الطب بالفارسية بدلا من العربية . وفيه يضيف المؤلف سيد إسماعيل الجرجانى ، بعد أن أعاد ما ذكره ابن سينا من توجيهات « ويقول الشيخ أبو على (ابن سينا) رحمة الله عليه لقد جربت هذه الطريقة وعن سبيلها عرفت الشخص المحبوب ، ويلحق بما كتب ترجمة تكاد تكون دقيقة لعبارات ابن سينا الختامية عن سرعة شفاء المريض إذا ما تحققت له أمنيته .

وفى منتصف القرن الثالث عشر بعد مرور أكثر من مائة سنة جعل جلال الدين

رمى ، وهو من يمكن أن يسمى داتى فارس ، هـــذه المسألة موضوع القصـــة الرمزية التى استهل بها قصيدته « مثنوى » . وهذه القصة تروى حكاية ملك بينما كان فى رحلة صيد رأى فتاة بارعة الجمال فأغرم بها و تزوجها. ولـــكن صحتها اعتلت عقب ذلك مباشرة ، فحزن لذلك حزناً شديداً ، ولم يستطع الأطباء الذين استدعوا لعلاجها أن يخففوا من مرضها أو يسكنوا من آلامها ، وذلك لأنهم كانوا وهم يؤكدون للملك قدرتهم على رد الصحة إليها لا يستثنون فلا يضيفون إلى تأكيدهم عبارة « إن شاء الله » . ولهذا كانت كل أدويتهم تؤثر عكس مايراد منها أو المرغوب فيه ، فـكان السكنجبين يزيد فى الصفراء ، والهندى شعيرى (هاليلا) يجفف بدلا من أن يلين . وأخيراً استجيب لدعاء الملك فظهر طبيب إلهى ، وبعد أن فحص المريضة فحصاً دقيقاً ، أعلن أن العلاج الذى اتبع إلى ذلك الوقت كان علاجاً ضاراً ومبنياً على تشخيص خاطىء . وطلب أن يترك وحده مع المريضة وشرع فى توجيه أسئلة إليها عن البلاد التى سبق أن عاشت فيها لأن العلاج ، كما أوضح يختلف تبعاً للمكان الذى نشأ فيه المريض أو حل به فترة ما . وكان يحتفظ بأصبعه على نبضها بينما كان يسألها عن ماضيها ، ولـكنه لم يلاحظ علامة على أى انفعال إلى أن ذكرت سمرقند، ثم عند ذكر حى ساريبول ، ثم عند ذكر شارع غطفر[1] . وبالاختصار اكتشف أخيراً بالطريقة عينها التى أوضحها ابن سينا أنها تحب صائغاً يقطن فى ذلك الشارع من سمرقند . وعند ذلك ، طلب إلى الملك بعد أن طمأنها ووعدها بالشفاء ، أن يبعث برسول إلى سمرقند يدعو الصائغ إلى الحضور إلى البلاط ويعده بمكافأة ثمينة . وقد أسرع الصائغ بالحضور وقد اطمأن إلى إطراء الملك وعطاياه الثمينة ،

(١) وهذه الأماكن موجودة فعلا See V. Zhukovsk's
РАЗВАНННЫ СТАРАТО МЕРВА, P. 171, n.l. صفحة

ووعوده الطيبة ، ولم تداخله ريبة ، وعند وصوله وطبقاً لتعليمات « الطبيب الإلهى » عقد له على الفتاة ، التى استردت صحتها وجمالها فى مدى ستة أشهر . وبعد ذلك شرع الطبيب فى تقديم سم بطىء للصائغ يتسبب فى أن يصبح قبيح المنظر ، لا يسر الناظر إليه ، شاحب اللون حتى تسأمه الفتاة قبل موته الذى لم يتأخر طويلا ، فأصبحت مرة ثانيـــة طوع إرادة الملك ، وهى الآن زوجته . وليس عندى الآن وقت للـكلام فى المعنى الرمزى لهذه القصة التى تبدو فى ظاهرها مخالفة للآداب ، ولـكن استعمال المادة الطبية المستعارة بطريق غـير مباشر من ابن سينا استعمالا أدبياً بحتاً يبدو لى أمراً يدعو إلى الاهتمام الشديد .

وسأقتبس من كتاب « المقالات الأربع » قصة أخرى واحدة لا غير ، وبطل هذه القصة هو ابن سينا أيضاً . فقد أصيب أمير من أمراء أسرة بويه بالملانخوليا ، وخيل إليه أنه بقرة . ويقول المؤلف « وكان الأمير يخور كل يوم كما تفعل البقرة ،فتضيق لذلك صدور كل من حوله،وكان يصيح ددا ذبحونى واصنعوا من لحمى طبقاً شهياً من اليخنى » ، وظلت الحال تسوء حتى امتنع عن الأكل بتاتاً ، بينما الأطباء عاجزون عن أن يفيدوه بشىء ، وأخيراً أمـكن إقناع ابن سينا ، وكان إذ ذاك رئيساً لوزراء علاء الدولة بن قاقوية ، أن يتولى الحالة، وقدوافق رغم ضغط المشاغل العامة والخاصة والسياسية والعلمية والأدبية التى كانت تثقل كاهله. وكان أول ماصنع أن أرسل للمريض رسالة طلب إليه فيها أن يفرح لأن الجزار قادم لذبحه وقيل إن المريض سر لذلك . وبعد فترة من الوقت دخل ابن سينا حجرة المريض وبيده سكين وقال « أين البقرة حتى أذبحها؟» فخار المريض خوار البقرة ليدله على مكانه . فألقى بأمر ابن سينا على الأرض

موثوق اليدين والرجلين . ثم تقدم ابن سينا فجس جسمه كله ثم قال « إنه نحيف جداً ، ولا يصلح للذبح ، ويجب أن يسمن » . فقدموا إليه عندئذ غذاء مناسباً فأقبل عليه يأكل منه بشهية ، فعادت إليه قوة تدريجياً ، وتخلص من وهمه ، وبرئ من علته تماماً . ويختم الراوى قصته قائلا « وواضح لكل ذى عقل أنه لا يقدر إنسان على إبراء المرض بمثل هذه الطرق من العلاج إلا إذا بلغ من الذكاء القمة ومن العلم الغاية ، وكان صادق الحدس والفطنة » . وقد نظمت هذه القصة أيضاً شعراً ، نظمها جامع فى كتابه « سلسلة الذهب » المؤلف سنة ١٤٨٥ ميلادية ، بعد كتاب « المقالات الأربع » بثلاثمائة وثلاثين سنة ، ولكنى لم أستطع العثور على أية إشارة إلى أى طريقة مماثلة فى المقالة التى كتبها ابن سينا فى « قانونه » عن الملانخوليا .

ولا بد من الإشارة ، قبل ترك هذا الموضوع إلى قصة رواها الشاعر نظامى فى كتابه « مخزن الأسرار » حيث يستعمل الإيحاء لا للإبراء بل للإهلاك . وتروى هذه القصة كيف أن المنافسة بين طبيبين من أطباء البلاط بلغت أخيراً حداً جعلهما يتحدى أحدهما الآخر إلى مبارزة أو امتحان بالسم ، ويقضى الاتفاق بأن يتناول كل منهما سماً أعده خصمه ، ثم عليه أن يحاول أن يبطل مفعوله بدواء مضاد مناسب . وأعد الأول جرعة من السم يبلغ من شدتها أن تذيب الحجارة السوداء ؛ فشرب منافسه الكأس ثم تناول فى الحال جرعة مضادة أبطلت مفعوله . وجاء دوره ، فالتقط زهرة من الحديقة ، وقرأ عليها رقية وأمر خصمه بشملها ، فلما فعل سقط ميتاً فى الحال . ويبين الشاعر بوضوح أن موته سببه الخوف فحسب ، ولم يكن لخاصية سامة أو سحرية فى الوردة حيث يقول ما ترجمته :

وبهذه الوردة التى أعطاهـا له قارئ الرُّقى

تغلب الخوف على العـدو فأسـلم الروح

فذلك بالترياق طرد السم من جسمه

بينما مات هذا من الخوف بسبب وردة

وإنى لقليل الشك فى أن الإيحاء لعب دوراً هاماً فى الطب العربى . وإن القراءة المستفيضة فى الـكتب العربية والفارسية (ومن المحزن أنها ينقصها فى الغالب الاطراد والتنسيق ، وأنها طبعاً لم توضع لها فهارس مطلقاً) سوف تنتج فى هذا الحقل حصاداً وفيراً . ولـكن لشعوب الشرق ولعاً كبيراً كولع الأطفال بما هو عجيب ، فهم يحبون أن يكون ملوكهم فى أعلى مراتب العظمة والقوة ، وأن يكون جمال ملـكاتهم وأميراتهم لا يدانيه جمال ، وأن تـكون حكمة وزرائهم خارقة ، وأن يكون إدراك أطبائهم فوق مستوى البشر ، وأن يكونوا واسعى الحيلة حسنى التصرف . وهذا الإيمان غير المحدود ، الذى يسبب فى الحقيقة ارتباكا شديداً لمن يمارس مهنة الطب فى الشرق يجد فى أمثال هذه القصص المثيرة للعواطف التى اقتبستها ، دعامة تقويه وتنشره بين الناس . فسيقولون لك إن الرازى صنع هذا ، وابن سينا صنع ذلك ، وأنت ياوريث كل العصور ، ألست أعظم من هؤلاء ، بل أعظم من أبو قراط وجالينوس ؟ ومع ذلك فإن الـكتاب الأصلى الذى دون فيه الرازى مشاهداته ، والذى كان من حسن الحظ أن حفظ لنا جزء صغير منه فى مخطوط بمـكتبة بودليان[1] سبقت الإشارة إليه فى محاضرة سابقة ، يكاد يكون الوحيد بين المؤلفات العربية الذى تنقصه صفة

(١) March 156, الأوجة ٢٣٩ ب — ٢٤٦ أ .

الإثارة نقصاً تاماً ، وإنه لمن مفاخر هذا الطبيب العظيم أنه أراد لنفسه أن يدون بأمانة تلك الحالات التى حيرته أول الأمر أو أعياه الطب لها .

وقد أوضحت فى المحاضرة التى افتتحت بها هذه السلسلة أنه وإن كان العصر الذهبى للأدب والعلم الإسلامى أو العربى هو القرن الأول أو القرنين الأولين من عهد الخلافة العباسية فى بغداد (أى من سنة ٧٥٠ فصاعداً) فقد ظلت الثقافة محتفظة بمستوى عال حتى ابتليت بنكبة المغول أو غزو التتار فى القرن الثالث عشر ، فأصابها بضربة لم تفق منها مطلقاً . إذ سقطت الخلافة ونهبت العاصمة ودمرت سنة ١٢٥٨ ؛ ومع أن الذين ظلوا على قيد الحياة من شباب علماء الجيل تابعوا حمل تقاليد العلم السليمة الصحيحة بعد ذلك حيناً من الزمن ، إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أنه يوجد اختلاف بين ما أنتج من أدب وعلم قبل القرن الثالث عشر وما أنتج بعده فى جميع الأقطار الإسلامية ، لا فى الدرجة فحسب ولكن فى النوع أيضاً . وترجع المناعة النسبية التى حظى بها الطب والتاريخ إلى رغبة الغزاة المتوحشين فى الصحة والشهرة ، وسيكون حديثى فى المحاضرة التالية عن واحد على الأقل من الذين عاشوا حتى القرن الرابع عشر . وبالطبع لم ينقطع نوع ما من التأليف الطبى منذ ذلك الحين إلى الآن ؛ ويمكننا تكوين فكرة عن عدد المؤلفات الطبية التى ألفت باللغة الفارسية وحدها إذا رجعنا إلى كتاب « من مصادر الطب الفارسى » ؟ Zur Quellenkunde der Persischen Medizin تأليف أدولف فوناهن Adolf Fonahn ، نشر فى ليبزج سنة ١٩١٠ . فمؤلف هذا الكتاب القيم الذى بذل فيه جهدا شاقا يحصى ٤٠٠ مؤلف فارسى (نشر منها عدد قليل جداً) منها كتب تناولت بكاملها موضوعات طبية ، وتناولتها الأخرى فى أجزاء

منها ، وملحق به كشف جم الفائدة[1] يحتوى أسماء مؤلفات خمسة وعشرين طبيباً من أشهر الأطباء الفارسيين[2] ومؤلفى كتب الطب الذين اشتهروا فى المدة من أواخر القرن العاشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، كما يحتوى على ملاحظات عن سير حياتهم ، إلا أنه لم يذكر بينهم أمثال الرازى وعلى ابن عباس ، وابن سينا الذين وإن كانوا من الجنس الفارسى إلا أنهم كانوا يكتبون بالعربية . وهذه المؤلفات الطبية المكتوبة باللغة الوطنية تكاد تكون مجهولة ، ومن المقطوع به أن ارتياد مجاهلها لن يكون ذا فائدة إلا بعد أن يتم بحث المؤلفات العربية التى سبقتها بحثاً دقيقاً . إن العلم التام بمحتويات كتاب « الحاوى » أو « الكتاب الملكى» أو «قانون ابن سينا» لازم لتقرير ما إذا كان العلماء اللاحقون قد أضافوا إلى ما ورد فى الكتب السالفة جديدا ذا قيمة ، أو أجروا تعديلات هامة . وفى نيتى أن أتحدث فى المحاضرة التالية عن كتاب فارسى قيم فى الطب يسمى « الذخيرة الخوارزمية » ألف فى القرن الثانى عشر ، وكان من حسن الحظ أن وقعت بين يدى مخطوطات عديدة لهذا الكتاب .

ولم يلق اهتماماً كبيراً فى أوربا من الكتب الفارسية الطبية إلا كتابان فقط غير هذا الكتاب فيما أعلم — أحدهما كتاب « المادة الطبية » صنفه أبو منصور موفق من أهل الحيرة حوالى سنة ٩٥٠ ميلادية ، والآخر كتاب « التشريح » المصور ألفه منصور بن محمد سنة ١٣٩٦ م . وأقدم مخطوط فارسى عرف فى أوربا من نسخ الشاعر أسدى سنة ١٠٥٥ م وهو الأصل الوحيد

---

(١) صفحات ١٣٥ — ١٤٠ .

(٢) صفحات ١٢٩ — ١٣٤ .

للكتاب الأول ، وقد أخرجه فى فيينا الدكتور ف. ر. سيليجمان Dr. F. R. Seligmann سنة ١٨٥٩ فى طبعة أنيقة فيها جمال بديع وذوق فنى ، واشترك فى إخراجه على هذا النحو الممتاز عبد الخالق أشوندو والدكتور بول هورن Dr. Paul Horn والأستاذ جوللى Prof. Jolly وقد لفتت الرسوم التشريحية الموجودة فى الكتاب الثانى أنظار الدكتور كارل سودهوف Dr. Karl Sudhoff بصفة خاصة فقام بنشرها نقلا عن المخطوط الموجود فى وزارة الهند فى كتابه Studien zur Geschichte der Medizin [1] وأبدى فيها رأياً مفاده أنها تمثل تقليداً متواتراً قديماً ربما يرجع حتى إلى مدرسة الإسكندرية . وقد حصلت من هذا الكتاب على مخطوطين ، يوجد بين بعض رسومهما اختلاف قد يكون ذا أهمية .

وأود قبل أن أختم هذه المحاضرة أن أضيف كلمات قليلة عن إدخال الطب الأوربى الحديث فى الشرق المسلم ، حيث لا يزال الطب القديم الذى نسميه الطب العربى والطب اليونانى الإسلامى يحتفظ بمكانته ، وإن كان يتخلى عنها ببطء وبخاصة فى فارس والهند . فقد كنت فى طهران سنة ١٨٨٧ ، وتفضل الدكتور طولوزون طبيب المرحوم صاحب الجلالة الشاه ناصر الدين فسهل لى وأنا هناك حضور مجلس الصحة فى عاصمة فارس ، وكان معظم الأطباء المجتمعين فى ذلك الوقت لا يعرفون طبا غير طب ابن سينا . ومنذ ذلك الوقت سافر إلى أوربا للدراسة عدد كبير من شباب فارس (وإن كان أقل كثيراً مما يود الإنسان) ، غير أنه فى منتصف القرن التاسع عشر كان رجال من أمثال الدكتور بولاك النمسوى Dr. Polak والدكتور شليمر الهولندى Dr. Schlimmer الذى

---

(١) Heft 4, ، ليبزج ١٩٠٨ .

سافر إلى فارس لتنظيم الـكليتين الجديدتين الصناعية والحربية يقومون بعمل الـكثير . وكتاب الدكتور شليمر «المصطلحات الطبية والصيدلية والأنثروبولوجية الفارسية والفرنسية» المطبوع على الحجر فى طهران سنة ١٨٧٤ . Terminologie Medico - Pharmaceutique et Anthropologique Française - Persane. له فى الواقع قيمة لا تقدر عند الذين يدرسون الطب الشرقى للـكم الهائل من المعلومات التى يحتوى عليها، والتعرف الدقيق على الأسماء الفارسية للنباتات والأدوية والأمراض . وكان من أوائل الـكتب التى طبعت بالحروف فى فارس رسالة عن التطعيم ضد الجدرى (ولم أرها) نشرت فى تبريز سنة ١٨٢٥ [١] . وفى هـــذه السنة نفسها أدخل علم الطب الحديث إلى مصر على يد كلوت بك Clot Bey وغيره من العلماء الفرنسيين الذين استقدمهم إليها الخديوى محمد على، وفيها أسس مستشفى أبو زعبل بالقرب من هليوبوليس ، ونقل بعد سنة من إنشائه إلى مكانه الحالى فى قصر العينى . وقد أرسل طلبة مصريون إلى إيطاليا فى سنة ١٨١٣ ، وفى سنة ١٨١٦ وإلى انجلترا فى سنة ١٨١٨ لدراسة العلوم العسكرية والبحرية ، وبناء السفن ، والطباعة والميكانيكا ، ولـكن يبدو أن أول طلبة أرسلوا لدراسة الطب بعثوا إلى باريس سنة ١٨٢٦ ، ولا شك أن ذلك كان بإيعاز من كلوت بك . وقد عرضت هذه النهضة العلمية الأخيرة عرضاً ممتازاً فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية [٢] » ، القاهرة ١٩١١—١٩١٤ لمؤلفه الذى لم يعرف الـكلال المرحوم جورجى زيدان وهو سورى مسيحى أقام فى مصر ، والـكلام عن هذا الـكتاب بإسهاب يبعد بى جداً عن موضوعى ولـكن نقطتين تتصلان

---

(١) ارجع الى كتاب ادوارد . ج . براون
Press and Poetry of Modern Persia . (كامبردج ١٩١٤) ، صفحة ٧
(٢) الجزء الرابع ، صفحة ٢٤ وما يليها .

بتاريخ هذا الموضوع لهما نوع ما من الارتباط بإحياء العلوم اليونانية فى الشرق فى القرن الثامن الذى تكلمت عنه فى محاضرتى الأولى فى العام الماضى . فهناك ذكرت سوء الرأى فى التشريح والتحامل ضده ؛ وإنه لما يثير الاهتمام أن نلاحظ أن كفاح كلوت بك ضد هذا التحامل نفسه جعل موته اغتيالا قاب قوسين[1] . وكذلك لاحظت أنه بينما كانت بعض الكتب اليونانية تترجم مباشرة إلى اللغة العربية لخلفاء بغداد ، فقد حدث فى كثير من الحالات أن كانت هناك لغة وسيطة هى اللغة السريانية . وقد حدث مثل هذا فى « النهضة الأخيرة» التى كانت القاهرة مسرحاً لها بعد ألف سنة ،[2] إذ نعلم أن واحداً من أمهر المترجمين هو حنين أو يوحنا عنخورى (ويمكننا أن نسميه بحق حنين الثانى) «كان لا يجيد اللغة الفرنسية ولكنه كان يجيد اللغة الإيطالية التى اعتاد أن يترجم منها إلى اللغة العربية . لذلك متى كان الكتاب مؤلفاً باللغة الفرنسية ، كان يترجم له أولا إلى اللغة الإيطالية ، ومنها ينقله إلى اللغة العربية » . وكان الكتاب سواء ترجم مباشرة أو عن طريق غير مباشر إلى اللغة العربية يعرض عادة قبل إرساله إلى المطبعة على مصحح (مستقل تماماً عن مصحح المطبعة) ضليع فى اللغة العربية وعلى معرفة لا بأس بها بالعلم موضوع الكتاب وبمصطلحاته ولكنه لا يعرف أى لغة أوربية ، يتولى تقويم لغته وأسلوبه . وكانت ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية فى العصور الوسطى[3] تمر كما يقول الدكتور لوسيان ليكليرك بإجراءات مماثلة .

---

(١) انظر كتابه Aperçu général sur l'Egypte الجزء الثانى صفحة ٤١٥ (باريس ١٨٤٠)

(٢) الجزء الرابع من كتاب جورجى زيدان ، صفحة ١٩٠ .

(٣) كتاب Histoire de la Médicine Arabe الجزء الثانى صفحتا ٣٤٤ ، ٣٤٥

وكم كان أبو العلاء المعرى موفقاً فى تشبيهه للزمان بقصيدة طويلة لا تتغير فيها القافية والوزن والإيقاع أبداً وإن كانت كلمات القافية لا تتكرر مطلقاً حيث يقول :

وكأنما هذا الزمان قصيدة ما اضطر شاعرها إلى إيطائها

وكذلك يقول المؤرخ ابن خلدون « الماضى أشبه بالآتى من الماء بالماء » .

---

(٢) الإيطاء تكرر الألفاظ فى القافية .



المحاضرة الرابعة

إن العرض المختصر لتاريخ الطب العربى وتطوره ، الذى حاولت القيام به فى المحاضرات الثلاث السابقة والذى لابد أن أتمه اليوم ، كان محتوماً أن يكون محدوداً جداً بحكم الاعتبار الزمنى ؛ كما أننى اضطررت إلى أن أقصر معظم كلامى على عصر الخلفاء العباسيين وعلى البلاد التى خضعت لهم ، أى على المدة من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلادى وعلى أقاليم ميزوبوتاميا وفارس . وآسف إذ وجدتنى مضطراً إلى استبعاد الحضارة الباهرة التى ازدهرت فى إسبانيا والغرب تحت حكم العرب من العرض الذى أعددته ؛ ولكن حتى لا تنسوه أنتم أو تظنوا أننى نسيته ، أجد واجباً أن أذكر على الأقل عدداً قليلا من ألمع الأسماء فى تاريخ الطب المغربى . ففى القرن العاشر أخرجت قرطبة أعظم جراحى الجنس العربى ، أبو القاسم الزهراوى ، الذى عرف فى أوربا فى العصر الوسيط باسم أبو القاسس والبوكاسس والزاهارافيوس Abulcasis, Albucasis and Alsaharavius وكان معاصراً لابن جلجل طبيب البلاط ومؤلف كتاب « حياة الأطباء والحكماء » ومما يحزن أن هذا الكتاب مفقود . أما ابن جوفت Aben Guefit وحقيقة اسمه ابن الوافد الطايطلى ، وابن الجزار القيروانى من أهالى تونس الذى أراد أن يستريح من مشاق مهنة القرصنة فى أعالى البحار فهما من أهل عصر أقرب من عصر الزهراوى قليلا . ونبغ فى القرن الثانى عشر أفيروس القرطبى الشهير

(ابن رشد) والذى اشتهر بالفلسفة أكثر منه بالطب ، وأفينزوار Avenzoar الأشبيلى (ابن زهر) ؛ والعالم الشهير ميمونيدس القرطبى Maimonides (موسى ابن ميمون)) الذى صار أخيراً طبيب بلاط صلاح الدين فى مصر .
وهناك اسم آخر من القرن الثالث عشر يجب ألا يغفل ذكره مهما كانت الأسباب وهو عالم النبات العظيم ابن البيطار الملقى، وهو العالم الجدير بأن يكون خليفة ديوسكوريدس ، وقد قام برحلات واسعة فى اليونان وآسيا الصغرى ومصر بحثا عن الأعشاب الطبية ، وأصبحت مؤلفاته فى الماتيريا ميديكا (المادة الطبية) معروفة فى أوربا بفضل سونثيمر وليكليرك Sontheimer and Leclerc وأدت أسبانيا وإفريقيا الشمالية الغربية أهم دور فى نقل منهج الطب العربى إلى أوربا كما تعلمون ، وبخاصة طليطلة حيث سعى رجال من أمثال جيرار الكريمونى وميشيل سكوت [1] إلى الحصول على المعرفة التى نقلوها فيما بعد إلى أوربا المسيحية .

ولنعد الآن إلى فارس مرة أخرى ، حيث اشتهر القرن الثانى عشر بنمو لغة طبية علمية وطنية لم يكن يوجد منها إلا آثار قليلة جداً فى العصور السابقة . وكانت اللغة العربية التى لا تزال أهم وسيلة لنقل الفكر الدينى والفلسفى فى أنحاء البلاد العربية ، كما كانت اللغة اللاتينية فى أوربا فى العصر الوسيط ، تكاد تكون اللغة الوحيدة التى استعملها حتى ذلك الحين الأطباء الفارسيون العظام : الرازى وعلى بن العباس ، وابن سينا الذين سبق الكلام عنهم . ولكن حدث فى صدر القرن الثانى عشر أن قدم إلى بلاط خوارزم أو خيفا طبيب اسمه زين الدين

---

(١) الوقت الذى زار فيه جيرار الكريمونى (ولد ١١١٤ توفى ١١٨٧) طليطلة غير محقق أما ميشيل سكوت فقد زارها سنة ١٢١٧ .

إسماعيل الجرجانى (هيركانيا) ألف العديد من الكتب الطبية ، ومن أشهرها وأكبرها حجما كتاب يسمى « ذخيرة خوارزم شاه » تكريما لحاكم خوارزم الذى أهدى الكتاب إليه . ولا يزال هذا الكتاب الذى يناظر « قانون » ابن سينا ، إن لم يفقه حجما ومجالا غير منشور ، وإن كنت أعتقد أنه توجد لهذا الكتاب ترجمة إلى اللغة الأردية مطبوعة على الحجر لا تزال تستعمل فى الهند . وعندى زيادة على مالدى من مجلدات متفرقة نسخ بعضها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، مخطوط كامل لهذه الموسوعة يتكون من ١٤٠٣ صفحة حجم ١٢ × ٨ بوصة فى كل صفحة ٢٧ سطرا ولا يمكن أن يحتوى الكتاب أقل من ٤٥٠٫٠٠٠ كلمة ، ولأن الخط غير واضح بأى حال والنص بعيد عن الصحة ، وقد خلا طبعا من العناوين والفهارس ، فمن السهل إدراك أن فى مطالعة هذا الكتاب مشقة إلى حد ما . إلا أنه مقسم بإحكام إلى أقسام مجزأة إلى أقسام أصغر ، فهو مقسم أولا إلى تسعة مجلدات وملحق بها مجلد عاشر فى الماتيريا ميديكا ، ومقسم ثانيا إلى مقالات وأجزاء وأبواب ، وقد استطعت بمساعدة نسخة أخرى تكاد تكون كاملة فى مكتبة جامعة كمبردج أن أضع كشفا شاملا بها . وألاحظ أن مكتبة هذه الكلية بها مخطوط قديم جدا من القرن الثانى عشر [1] لجزء من المجلد السادس الذى يتناول الأمراض المحلية a capitead calcem ويشمل كل أبواب المقالة الثامنة الستة عن أمراض القلب وجزءا من المقالة الثالثة عشرة التى تتناول مرض الاستسقاء .

وصنف نفس المؤلف عددا من الكتب الطبية الصغيرة وكلها باللغة الفارسية

---

(١) مرقوم ، أ ٢٧٠ . (A. 27)

وهى : أغراض الطب ، والمذكّر فى الماتيريا ميديكا والصيدلة ، وخف علائى
وهو مكتوب فى مجلدين مستطيلين يحملهما المسافر فى خفيه ، كل مجلد منهما فى
خف ، ومن هنا كانت التسمية . وكل هذه الكتب معرّفة فى كتاب فوناهن
Fonahn المفيد. Zur Quellenkunde der Persischen Medizin. وأشاد
بها كلها مؤلف كتاب «المقالات الأربع » الذى ألف بعد وفاة زين الدين إسماعيل
بعشرين سنه فقط . أما عن كتاب « الذخيرة » وسأسمى بهذا الاسم من الآن
فصاعدا كتاب « ذخيرة خوارزم شاه » ، فإن عندى الكثير أقوله عنه ،
ولكنى سأكمل أولا عرضى التاريخى للتأليف الطبى حتى أصل به إلى عصر
المغول الذى لا أنوى تجاوزه .

يتميز القرن الثالث عشر بعدد من السير العربية الممتازة ، أذكر أولا من
الكتب التى تحتوى على السير الطبية فحسب ، كتاب « عيون الأنباء فى
طبقات الأطباء » صنفه ابن أبى أصيبعة فى دمشق سنه ١٢٤٥ وطبع فى القاهرة
فى مجلدين سنة ١٨٨٢ . ثم كتاب « تاريخ الحكماء » وهو قاموس سير
للفلاسفة والأطباء صنفه القفطى من أهالى صعيد مصر ، وكان مولعاً بالكتب
ويحب جمعها ، وكان القفطى يجمع إلى التقوى التسامح ، وكان جواداً فى تقديم
العون لغيره من العلماء ، وتوفى سنة ١٢٤٨ عن ٧٦ عاما . وحرر نص هذا
الكتاب القيم الدكتور جوليوس ليبرت Dr. Julius Lippert ونشر فى
ليبزج سنه ١٩٠٣ .وتوجد نسختان منقحتان من كتاب آخر يماثله للشهرزورى،
إحداهما بالعربية والثانية بالفرنسية ولكنه نادر ولم ينشر . أما قاموس
السير الكبير الذى ألفه ابن خلكان الذى بدأه فى القاهرة سنه ١٢٥٦ ميلادية ،
وأتمه فيها سنة ١٢٧٤ ، فيستطيع القارئ الإنجليزى أن يجده فى ترجمة البارون

مالك جوكن دى سلين . Baron Mc Guckin de Slane وهو وإن كان أعم نطاقاً فإنه يحتوى تاريخ عدد كبير من مشاهير الأطباء . وألف العالم الجغرافى ياقوت الذى عاش فى نفس الوقت قاموساً ، أرخ فيه لحياة كثيرين أيضاً ، وقد حرر منه الأستاذ مرجوليوث خمسة مجلدات ، إلا أن أغلب من أرخ لهم فيه من رجال الأدب . وأخيراً يجب أن يذكر الطبيب النصرانى الفيلسوف ، عالم الإلهيات ، المؤرخ أبو الفرج جريجوريوس المشهور باسم بارهبرايوس Bar Hebraeus المتوفى سنه ١٢٨٦ ميلادية عن ٦٠ عاما ، الذى وصفه المرحوم الدكتور وايت Dr. Wright[1] بقوله «إنه واحد من أعلم من أنجبتهم سوريا من الرجال وأوسعهم معرفه وقد ألف أغلب كتبه بالسريانية ، ولكنه فى أخريات حياته ، أخرج ، بناء على طلب بعض أصدقائه من المسلمين من أهالى مراغة فى الشمال الشرقى من فارس ، نسخة منقحة بالعربية من الجزء الأول وهو الجزء السياسى من كتابه الكبير فى التاريخ العالمى « وأثراه بكثير من الإشارات إلى مؤلفين مسلمين وإلى الأدب الإسلامى خلا منها الأصل السريانى » . ولما كان طبيباً ذا مكانة ، يتمتع بحظوة كبيرة عند حكام فارس من المغول ولهم فيه ثقة عظيمة ، كان طبيعياً أن يقف فى تاريخه جزءاً كبيراً من عنايته على المسائل الطبية » . وقد حرر هذا الكتاب مع ترجمة لاتينية بوكوك Pocock سنه ١٦٦٣ م ، كما نشرت طبعة محررة أخرى ممتازة مع فهارس كاملة ، وقامت بذلك المطبعة الكاثولوكية ببيروت سنة ١٨٩٠

---

(١) الأدب السريانى Syriac Literature (لندن ١٨٩٤) صفحه ٢٦٥ . ولمعرفة بيان بمؤلفاته ، انظر صفحة ٢٥٢ من نفس الكتاب .

إن أهم ماينقصنا لكى نكون صورة لما كانت عليه صناعة الطب فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى هو بيان عن الكيفية الحقيقية التى كانت تدار بها المستشفيات التى أقيمت بأعداد كبيرة فى جميع المدن الهامة بأموال المتقين من المحسنين . وفى الحق أننا نجد ما نريد من المعلومات عن المبانى فى أقاصيص الرحالة — مثل ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) ، وفى وصف علماء تخطيط البلدان من أمثال المقريزى (القرن الخامس عشر) الذى ذكر تفصيلات تاريخ خمسة من المستشفيات الموجودة فى القاهرة[1] ومواقعها ، وتركيبها . وأقدمها هو المستشفى الذى أنشأه أحمد بن طولون سنة ٨٧٣ بعد الميلاد ، وأهمها المستشفى الذى أنشأه قلاوون سنة ١٢٤٨ بعد الميلاد وسمى «المارستان الكبير المنصورى» ، أنشأه قلاوون فى عهد الملك المنصور وفاء بنذر أخذه على نفسه قبل بضع سنين عندما شفى من إصابة شديدة بالقولنج فى دمشق ، وعالجه منها الأطباء الملحقون بمستشفى المدينة الذى أنشأه نور الدين الذى كان يعمل صلاح الدين العظيم فى خدمته أول الأمر . وبلغت المنحة السنوية للمستشفى مليوناً من الدراهم ، وكان يقبل للعلاج فيه كل المرضى من الأغنياء والفقراء ، من النساء والرجال ، وكان يحتوى على قاعات فسيحة للنساء وأخرى للرجال ، كما عين به ممرضون وممرضات لرعاية المرضى . وكان يفرد به قاعة كبيرة للمرضى بالحمى ، وأخرى لأمراض العيون ، وثالثة للحالات الجراحية ، وقاعة للدوسنطاريا والعلل المشابهة . وبالمستشفى مطبخ ، وحجر للدرس ، ومخازن للأدوية والأجهزة ، وصيدلية ، وغرف للأطباء الموظفين . ومما يستحق الملاحظة أن كلمة « المارستان » التى

---

(١) الخطط (بولاق ١٨٥٣) الجزء الثانى ، صفحات ٤٠٥ إلى ٤٠٨ وانظر أيضاً كتاب لين E.W. Lane « القاهرة منذ خمسين عاما » (لندن ١٨٩٦) صفحات ٩٢ — ٩٤
Cairo Fifty Years Ago

استعملت فى كل هذه الكتب للدلالة على المستشفى ، هى تشويه للكلمة الفارسية بيمارستان التى تدل فى تلك اللغة على « مكان للمرضى » . وقد استبدل بها فى مصر كلمة عربية خالصة هى « مستشفى » وهى تعنى « المكان الذى تنتجع فيه الصحة » ، بينما أصبحت « مارستان » تستعمل للدلالة على « بيت المجانين » .
وقد أفردت منذ أول الأمر فى المستشفيات حجر خاصة أو خلوات لمرضى العقل ؛ ويقص علينا المقريزى كيف أن أحمد بن طولون مؤسس أقدم مستشفى بالقاهرة اعتاد أن يزوره كل يوم ، حتى كان يوم تقدم إليه مجنون يسأله رمانة ، وبدلا من أن يأكلها ، رماه بها بقوة فانقسمت وأتلفت ملابسه ، فامتنع بعد ذلك بتاتاً عن زيارة المستشفى . ويروى لنا لين Lane فى كتابه «القاهرة منذ خمسين سنة » قصة مؤثرة تستدر العطف عن مرضى العقول الذين شاهدهم فى بيمارستان قلاوون فى إحدى زياراته ، أما كلوت بك فى كتابه « نظرات عامة على مصر » فيرسم [1] صورة محزنة لحالة الطب فى ذلك القطر فى أوائل القرن التاسع عشر .

وهناك مخطوط فارسى ثمين جداً ، أعتقد أنه فريد ، حصلت عليه منذ قريب من مكتبة المرحوم السير ألبرت هوتوم سندلر Sir Albert Houtum Schindler الذى اكتسب خلال إقامته الطويلة فى فارس معرفة بتلك البلاد فى كل مظاهرها تزيد كثيراً على ما يعرفه أى إنسان على قيد الحياة الآن ، ويلقى هذا المخطوط عرضاً بعض الضوء على حالة الطب هناك فى أوائل القرن الرابع عشر . وكان الطبيب رشيد الدين فضل الله المولود سنة ١٢٤٧ فى همذان حيث دفن ابن سينا من أكثر كتاب ذلك الزمان إحاطة بالعلوم والآداب . وأصبح طبيب بلاط

(١) باريس سنة ١٨٤٠ ، الجزء الثانى صفحات ٣٨٢ وما تلاها .

الحاكم المغولى أبقا ثم خليفته غازان الذى اعتنق الإسلام وبلغ من عظم تقديره له أن عينهُ سنة ١٢٩٥ كبيروزرائه . وتمتع طوال المدة البالغة اثنين وعشرين عاماً التى احتفظ فيها بمنصبه الكبير الخطر (فقد كان من أندر ما يحدث أن يموت وزير من وزراء المغول موتاً طبيعياً) بثروة ضخمة وسلطان بالغ ، أحسن استغلالهما فى إنشاء الكليات والمستشفيات والمكتبات والمنح العلمية وتشجيع العلماء . وأغدق على الحى الأنيق الذى أنشــأه فى تبريز وسمى باسمه « ربع الرشيدى » عناية لاحد لها ، فلم يكتف بما زينه به من المبانى الضخمة التى وقفها على أعمال التقى والعلم ، بل استطاع بجوده أن يجتذب إلى هذا الحى من جميع أقطار الأرض أعظم العلماء ، وأمهر الصناع ، وأحذق أصحاب المهن فى ذلك الوقت . ووصف كاترمير Quatremère فى مقدمة كتابه « تاريخ المغول » تفصيل ما اتخذه رشيدالدين من احتياطات دقيقة وعجيبة ليضمن الانتشار والبقاء للعلم المودع فى بطون الكتب الموجودة بمكتبات ربع الرشيدى التى لا مثيل لها . ومن عجب أن هذه الاحتياطات لم تغن عندما وقعت الواقعة ، ذلك أنه عندما سقط صريع مؤامرات أعدائه الحاقدين فى يوليو ١٣١٨ فقتل ، أصبحت الضاحية الجميلة التى خصها بالكثير من تفكيره وأغدق عليها الكثير من عنايته وثروته نهباً مباحاً ودمرت تدميراً .

هذا هو باختصار الرجل الذى فضل وهو فى أوج سلطانه أن يسمى نفسه رشيد الطبيب عن أن يتخذ له من الألقاب ما هو عالى الجرس فى عصر عرف بالحذلقة والتكلف ؛ ويحتوى المخطوط الذى ذكرته على مجموعة تبلغ الخمسين من رسائله موجهة إلى أناس مختلفين فى موضوعات شتى كثيرة جمعها ورتبها أمين سره محمد الأبرق . وتفضل صديقى محمد شافعى أستاذ اللغة العربية بالكلية

الشرقية بلاهور أن يختار من هذا المجلد الثمين زبدته ، فركز أو حذف من كثير من هذه الرسائل ما تحفل به من الحكم والمواعظ والتافه من الكلام ، ووجه عناية خاصة إلى تلك التى تحتوى على الهام من الشئون ، وبخاصة مايتصل بالطب والاقرباذين وعددها عشر . وهى الرسائل التى سأتكلم عنها باختصار، وسأتناولها بالترتيب الذى وردت به فى المخطوط .

رقم ١٨ (وجوه ٣٤ ب — ٣٦ ب) ، موجهة إلى الخواجة علاء الدين هند، ويطلب زيوتاً مختلفة لازمة للستشفى الموجود فى ربع الرشيدى بتبريز لأنه طبقاً لتقرير الطبيب المسئول محمد بن النيلى الموصوف بأنه « جالينوس زماننا » محتاج إليها أشد الاحتياج . والكميات المطلوبة من كل نوع (وتتراوح بين قنطار وثلاثمائة قنطار) والمكان الذى يحصل عليها منه مبينة بعناية . فستة أنواع تستورد من شيراز ؛ ومن بصرى سبعة ؛ ومن آسيا الصغرى ستة ؛ ومن بغداد تسعة ؛ ومن سوريا ثلاثة ؛ ومن حلا ثلاثة . ومعظمها زيوت عطرية مستخلصة من زهور عدة ذكية الرائحة ، بنفسج ، وياسمين ، ونرجس ، وورود مختلفة الأنواع ، وريحان وزهور البرتقال ، وغيرها ، ولكننا نجد أيضاً الإبسنت ، والمستكة ، والبابونج ، وزيت الخروع ، بل زيت العقارب أيضاً . ويلح الكاتب فى حاشيته للرسالة على سرعة تنفيذ هذه الطلبات ، ويأمر تفادياً للتأخير ، بأن يرسل رسول خاص إلى كل جهة من الجهات الست الموضحة .

رقم ١٩ (وجوه ٣٦ ب — ٤٠ أ) أرسلها رشيد إلى ابنه الأمير على والى بغداد ، وفيها تعلياته بشأن المعاشات والهدايا التى تمنح لرجال العلم فى الإمبراطورية الفارسية من أوكسس Oxus إلى جمنا Jamna ثم غرباً إلى آسيا الصغرى والحدود المصرية . وتتكون الهدايا فى كل حالة من مبلغ من المال

وعباءة ، ودابه . واختص واحد فقط من بين الأشخاص المذكورة أسماؤهم فى الرسالة وعددهم تسعة وأربعون بلقب الطبيب ، وهو محمود بن إلياس[1] وهديته ألف دينار يتسلمها نقداً وعداً ، وعباءة من فرو السنجاب الرمادى وحصان أو بغل مسرج .

رقم ٢١ (الوجوه ٨٧ ب — ٩٢ أ) . أرسله رشيد إلى ابنه جلال الدين والى آسيا الصغرى يطلب إليه أن يرسل إلى تبريز كل عام كميات من الينسون والفطر العطرى agaric والمصطكى ، واللاونده ، والحامول، والشيح ، تتراوح بين ٥٠ ومائة قنطار لاستعمالها فى المستشفى .

رقم ٢٩ (وجوه ٨٧ ب — ٩٢ أ) . كتبت هذه الرسالة من مولتان فى السند إلى مولانا قطب الدين الشيرازى . وفيها يشكو الكاتب من أنه اضطر إلى هجر حياته الناعمة فى فارس والقيام برحلة متعبة إلى الهند استجابة لنزوة من نزوات أرغون المغولى ، الذى رغب إليه أن يؤكد لملوك الهند وأمرائها ماللولاه من عظمة وقوة ويقنعهم بذلك ، وفى نفس الوقت يقوم بجمع بعض العقاقير النافعة التى لا توجد فى فارس . ويعرب فى الرسالة عن شعوره بالرضى لنجاح مهمته وقرب عودته إلى بيته ، ويصف عرضاً كيف أنه ، دون أن يغضب السلطان علاء الدين ، الذى كان مبعوثاً مفوضاً لديه ، نجح فى معاتبته على انغماسه فى شرب الخمر ، فقد جعل العتاب مستساغاً بالالتجاء إلى قصة مسلية وإلى بعض الأشعار المناسبة ، حتى أن مضيفه الملكى ، بدلا من الغضب ، قرر له ولابنه من بعده معاشاً كبيراً .

---

(١) انظر رقم ٤١ فيما يلى .

رقم ٣٦ (وجوه ١٢٠ ب — ١٣١ ب) . وهى رسالة طويلة جداً كتبت في الوقت الذى كان فيه رشيد يعتقد أنه مصاب بمرض يفضى إلى الموت ، وتحتوى على تعليمات محكمة مستفيضة عن كيفية التصرف فى أمواله وصيانة المؤسسات التى أنشأها . وذكر بعض مسائل من الشئون الخاصة بالمكتبة التى أوصى بها لربع الرشيدى ، والتى تحتوى على ١٠٠٠ (ألف) مصحف ، كثير منها مكتوب بخط أشهر الخطاطين و ٦٠٠٠٠ (ستين ألفاً) من مخطوطات أخرى ، علمية وأدبية ، من بينها كتب أحضرت من الهند والصين . ويذكر بصفة خاصة ١٠٠٠ (ألف) قدر للشراب من الصناعة الصينية الفنية البالغة الدقة ، وتحمل كل منها اسم الشراب الذى صنعت ليوضع فيها ، كما خص بالذكر علباً للمعاجين من الصناعة الصينية .

رقم ٤٠ (وجوه ١٣٦ أ — ١٣٨ ب) وهى وإن تكن رسالة لا تتعلق بالطب فإنها هامة من حيث إنها تظهر تضامن العالم الإسلامى ، والسرعة التى تسرى بها الآراء فى هذا العالم حتى تصل إلى أقصى أجزائه ، والدفع القوى للعلم الذى يستطيع راع واحد كريم أن يقوم به حتى فى البلاد التى ليس بين وطنه وبينها اتصال سياسى . فهى تحتوى على تعليمات وجهها رشيد إلى أحد وكلائه فى آسيا الصغرى خاصة بالمكافآت المالية والهدايا المناسبة لرجال العلم فى المغرب والأقطار الغربية من العالم الإسلامى الذين ألفوا كتباً تكريماً له . وكان ستة من هؤلاء من أهل قرطبة وأشبيلية ومدن أخرى من مدن الأندلس ، وأربعة يقطنون فى تونس وطرابلس وقيروان وجملتهم عشرة. ونحن نهنئ أنفسنا على سهولة الاتصال فى هذه الأيام ، ولكن من المشكوك فيه أن تنتقل الآن فكرة أو كتاب أو مذهب فلسفى من تونس إلى تبريز أو من أشبيلية إلى سمرقند

بنفس السرعة التى كان ينتقل بها فى القرن الرابع عشر . إذ كان للإسلام، واللغة العربية وسيطته العالمية ، أثر فى التوحيد ما كان أقواه .!

رقم ٤١ (وجوه ١٣٨ ب — ١٤٠ ب) وتختص بإعادة بناء مستشفى فى شيزار وإجراء المعونة له من جديد ، وكان الأتابك من أهل فارس هم الذين أنشئوه أصلا منذ قرن من الزمان وأصابته يد البلى بعد حين . وعين له رشيد طبيباً جديداً هو محمد بن إلياس[1] الذى اجتذب انتباهه إليه وأرضاه عنه كتاب طبي اسمه « لطائف الرشيدية » صنفه تكريماً له . ولست أدرى إن كان هذا الكتاب لا يزال موجوداً أو أنه غير موجود ، ولكن فوناهن[2] يذكر كتاباً آخر يسمى «تحفة الحكماء» لنفس المؤلف ، يوجد منه مخطوط فى مكتبة « النور العثمانية » فى القسطنطينية . وبمقتضى هـــذه الرسالة خصص لهذا الطبيب مرتب سنوى وهبات سنية تدفع له من الإيرادات المحلية ، وعين مديراً للمستشفى ولكل ما هو موقوف عليه وكافة أمواله .

رقم ٤٢ (وجوه ١٤١ أ — ١٤٢ ب) وتختص بأكلها بمستشفى همذان (وهى موطن رشيد) الذى أصبح فى حالة غير مرضية أيضاً نتيجة لسوء التصرف فى إيراداته . فعين طبيب جديد هو ابن مهدى ، يتولى إدارته ويعيد تنظيمه مع زيادة العناية بمصلحة المرضى وبتزويده بالأدوية والعقاقير الطبية ، وذكرت من بينها بصفة خاصة أصناف عديدة لم يكن الحصول عليها سهلا ، مثل التين المختوم ، وزيت البلسم ، والورق الهندى ، وترياق الفاروق. كما اقترحت التدابير الواجبة

---

(١) انظر رقم ١٩ فيما سبق .
(٢) صفحة ١٢٤ من Zur Qnellenkunde d. Pers. Medizin.

لتنظيم حساباته على خير وجه . ونبه الطبيب إلى أن عليه بعد تنفيذ كل ذلك ، وتعيين صيدلى وممرض وطباخ وغيرهم من العاملين ، أن يعود إلى تبريز حيث تنتظره نعم أخرى ، وهذه الرسالة من الرسائل القليلة المؤرخة : فهى مكتوبة فى قيصرية سنة ٦٩٠ هجرية (١٢٩١ م) .

رقم ٤٧ (وجوه ١٤١ أ — ١٥٦ ب) ، وهى رسالة كتبها مالك علاء الدين من الهند إلى رشيد يمتدح روحه العامة وخدماته للإنسانية ، وتحتوى على كشف بالهدايا التى أرسلت إليه عن طريق ميناء البصرة . وقد رتبت هذه الهدايا فى اثنى عشر نوعاً ، وهى (١) حلل (٢) أحجار ثمينة (٣) عطور (٤) حيوانات نادرة (٥) مربات (٦) بسائط (٧) غسول لإزالة النمش ، وخص بتقدير مستقل (٨) مفروشات (٩) زيوت عطرية (١٠) أطباق وصينى (١١) أفاوية وفواكه مجففة (١٢) أخشاب نادرة وعاج . وبيان الأدوية أطولها فهو يحتوى على ٢٢ فقرة ويشتمل على القرفة ، وجوزة الطيب ، والقرنفل ، والجبهان ، والكبابة ، والسيسم Cassia وبقلة الملك fumitory وجوز التاتبول betel-nuts .

رقم ٥١ (وجوه ١٧١ ب — ١٧٥ ب) وهى رسالة من رشيد إلى ابنه سعد الدين والى قنسرين والعواصم فى آسيا الصغرى ، يصف فيها اجتماع العلماء الذين جذبهم فيض كرمه إلى تبريز وروعة ضاحية ربع الرشيدى التى خصها بالكثير من عنايته وأغدق عليها الكثير من ماله . فاحتوت على ٢٤ خاناً ، و١٥٠٠ ورشة ، و٣٠٫٠٠٠ منزل جميل ، عدا ما فيها من حدائق وحمامات ودكاكين ، وطواحين ومصانع للغزل والصباغة ، ومعامل لصنع الورق ، ودار لسك النقود . وكان سكانها قد اختيروا بعناية من مدن عدة وأقطار مختلفة .

كما كان بها ٢٠٠ من قراء القرآن المحترفين ذوى مرتبات محددة يرتلون القرآن يومياً فى الزوايا المخصصة لذلك ، ويدربون أربعين من التلامذة المختارين على التلاوة . وكان بها خط يسمى « خط العلماء » يسكن فيه ٤٠٠ من شيوخ الدين ، وفقهاء الشريعة وعلماء الحديث تجرى عليهم المرتبات المناسبة . وفى أحياء الطلاب المجاورة كان يسكن ألف (١٠٠٠) من الطلاب المتحمسين للعلم قادمين من مختلف البلاد الإسلامية ، وكانوا يتلقون إعانات دراسة ويوجهون فى دراساتهم طبقاً لقدراتهم . وبلغ عدد من اجتذبتهم من مهرة الأطباء خمسين من الهند والصين ومصر وسوريا وغيرها من الأقطار ، وخصص لكل منهم عشرة من التلاميذ المتلئين حماسة ذوى الاختصاص المحدد فى المستشفى ، الذى كان يضم أيضاً عدداً من الجراحين وأطباء العيون وجابرى العظام ، وكان كل من هؤلاء مسئولا عن خمسة من التلاميذ . وكانوا جميعاً يقطنون فى « خط المعالجين » خاف المستشفى بالقرب من حدائق وجنات رشيد آباد .

وبانتهاء كلامى عن هذه الرسائل أكون قد أتممت ما كان على أن أحدثكم به عن تاريخ ما يسمى الطب العربى وعن مؤلفاته فى حدود الزمن الضيق الذى فرضته على اعتبارات الزمان والمكان ؛ وأرى أن أتحدث الآن قليلا عن أسلوب الطب نفسه مع الإشارة بصفة خاصة إلى كتاب « كامل الصناعة » للمجوسى ، « والقانون » لابن سينا ، والإشارة بصفة أخص إلى « ذخيرة خوارزم مشاه » الذى لا يوجد إلا مخطوطاً . وهذه الكتب الثلاثة مؤلفات منسقة تعالج صناعة الطب من كل نواحيها العلمية والفنية كما كان يفهمها العالم الإسلامى فى العصر الوسيط . و « الكتاب الملكى » أى « كامل الصناعة » هو أبسط هذه الكتب ترتيباً ، فهو مكون من جزءين كل منهما يحتوى على عشر مقالات ، وقد تناولت المقالات العشر الأولى نظرية الطب ، وتناولت

العشر الثانية ممارسته ، وترجمته اللاتينية ، المطبوعة فى ليون سنة ١٥٢٣ هى خير الترجمات التى رأيتها وأكثرها سداداً . أما الكتابان الآخران ففيهما العيوب الشرقية المعتادة من حيث المبالغة فى التقسيم إلى حد الإفاضة . فإذا أغفلنا هذه العيوب نجد أن محتوى الكتب العشرة التى تكون الذخيرة (وهى تسعة فى الواقع وملحق) هى باختصار ما يأتى :—

الكتاب الأول :

ويتكون من ست مقالات و٧٧ باباً ، يتناول فيه تعريف الطب ، ومجاله وفوائده؛ والطبائع والعناصر والأمزجة والأخلاط ؛ كما يتناول التشريح العام والخاص وقوى الجسم الثلاث الطبيعية والحيوانية ، والنفسية .

الكتاب الثانى :

ويتكون من تسع مقالات و ١٥١ باباً ، يعرض فيه للصحة والمرض (بما فى ذلك الباثولوجيا العامة والتصنيف والأسماء) ، والعلامات والأعراض وبخاصة النبض والإفرازات ؛ وعلم العلل وأسباب الأمراض؛ وعلم الأجنة وطب التوليد ، ونمو الطفل والعناية به ، والعواطف والمشاعر ، والحياة والموت .

الكتاب الثالث :

ويتكون من ١٤ مقالة و ٢٠٤ أبواب ، يتناول علم الصحة بما فى ذلك أثر اختلاف الأجواء والفصول ، والهواء والماء والطعام والشراب بكافة أنواعه وبخاصة الخمور ، والنوم واليقظة ، والحركة ، والسكون ، والملابس، والعطور، والفصد ، والإسهال ، والمقيئات ، ودسكراسيا ؛ وحالات العقل وأثرها على الجسم ؛ ومقدمات المرض ، والعناية بالأطفال ، والعجائز ، والمسافرين .

الكتاب الرابع .

ويتكون من أربع مقالات و ٢٥ باباً ، يتناول فيه أهمية التشخيص ، ومبادئه وأهمية الغلى ، والبخران ، وتقدمة المعرفة .

الكتاب الخامس

ويتكون من ست مقالات و ٨٠ باباً ، ويتناول أنواع الحميات ، وعللها وأعراضها وطرق علاجها ، واستغرق الكلام عن حميات الملاريا أغلب المقالات الأربع الأولى ؛ أما الخامسة فتناولت الجدرى والحصبة ؛ وتناولت السادسة الانتكاس ، والوقاية ، والغذاء ، ومعالجة الناقهين .

الكتاب السادس

ويتكون من ٢١ مقالة و ٤٣٤ باباً ، ويتناول الأمراض الحاية a capita ad calcem بما فى ذلك العال العقيمة ، والصرع ، وداء السكتة ، والشلل ، والتيتانوس ، والاستسقاء وأمراض النساء ، والتوليد ، وداء الملوك (النقرس) والروماتزم ، وعرق النساء ، وداء الفيل .

الكتاب السابع

ويتكون من سبع مقالات و٥٥ باباً ، ويتناول الظروف الباثولوجية العامة التى قد تؤثر على أى عضو ، بما فى ذلك الأورام ، والخراجات ، والسرطان ، والجروح ، والكسور ، والخلع ، وفيه مقالة من اثنى عشر باباً فى الاستعمال الفعلى للكى .

الكتاب الثامن

ويتكون من ثلاث مقالات و ٣٧ باباً ، ويتناول النظافة الشخصية والعناية بالشعر والأظافر والبشرة .

ويتكون من خمس مقالات و ٤٤ باباً يتناول السموم الحيوانية والنباتية والمعدنية ؛ كما يتناول عض الحيوانات والحيات والزواحف السامة ، واسع الحشرات .

وهنا ينتهى أصلا هذا الكتاب الضخم الذى يحتوى على تسعة كتب و٧٥ مقالة و١١٠٧ أبواب بالعبارة الآتية: «إلى هنا انتهى كتاب السموم وبنهايته ينتهى الكتاب المسمى « ذخيرة خوارزم مشاه» بعون الله وتوفيقه « وتتبع هذه الخاتمة ثلاثة أجزاء أخيرة يعتذر فى أولها عن تأخره فى إتمام الكتاب، وفى الثانى يعتذر عما فيه من عيوب ، وفى الثالث يعتذر عن جميع الأطباء الذين يقعون فريسة للأمراض التى يعالجونها .

وأضاف المؤلف آخر الأمر خاتمة أو كتاباً عاشراً فى المتيرياميديكا مقسما إلى ثلاثة أجزاء ، تناول فى أولها المنتجات الحيوانية وفى ثانيها الأدوية النباتية البسيطة ، وفى الثالث الأدوية المركبة .

ويحسن بنا أن نتوقف هنا للنظر فى مسألتين كانتا دوماً حاضرتين فى ذهنى وأنا أقوم بإعداد هذه المحاضرات . أولاهما : إلى أى مدى يحتمل أن تكون الدراسة الوافية للطب العربى مجزية لما يبذل فيهامن جهد ؟ وثانيتهما :إذا فرضنا أن الطب العربى جدير بدراسة وافية، فكيف ينبغى القيام بهذه الدراسة فى المستقبل وأى الأجزاء أجدر بالدراسة ؟ .

وليس من المحتمل، من أضيق وجه من وجوه النظر النفعية، أن تنتج أعمق دراسة للموضوع نتائج عملية ذات أهمية ، نظراً إلى أن الصناعة كلها قائمة على تشريح بدائى وفسيولوجيا عفى عليها الزمن وباثولوجيا خيالية . على أنه قد

يستطاع من الماتيريا ميديكا ومن قواعد التغذية والصحة استخلاص بعض اللمحات ، وأخشى أن أقرر أن غاية ما يؤمل فيه فيما عدا هذا الاستثناء هو التوصل إلى نتائج عملية قليلة جداً . ومهما يكن من شىء فإن قلة فقط من المتعلمين ، ومن المؤكد أنه لن يكون من بينهم واحد من هذا الجمع الموقر الذى أشرف بالتحدث إليه، سينظر إلى الأمر هذه النظرة الضيقة النفعية البحتة التى يشجبها فى الواقع مجرد وجود محاضرات فيتزباتريك ؛ ونحن وإن كنا على استعداد للتسليم بأن البحث فى نشأة العلم والتطور الثقافى والحضارى الحالى أمر سديد بل مطلب نبيل، فلا يزال السؤال قائماً ، وهو هل فعل العرب أكثر من نقل حكمة اليونان ؟ وهل أضافوا الكثير مما هو أصيل إلى النظريات والآراء العلمية التى كانوا السدنة الأول لها طول نحو ثمانية قرون ؟ ويؤسفنى أن أقول إن الجواب عن هذا السؤال ليس سهلا ، وسيحتاج إلى بحث شاق قبل أن يستطاع الإجابة عنه جواباً شافياً . وفضلا عن ذلك فإن مثل ذلك البحث يحتاج إلى جملة من المؤهلات ليس من المألوف أن تجتمع فى فرد واحد ، هى المعرفة الجيدة باليونانية واللاتينية والسريانية والعربية والفارسية وإن أمكن فبالسنسكريتية ؛ والعلم بالطب أو على الأقل الاهتمام به ، والفراغ الكثير ؛ والقراءة النهمة التى تلتهم كل شىء ، وحماسة عظيمة وجهد متصل . ويجب أن نقرر بصورة حاسمة أنه لا يمكن الوصول إلى فكرة صادقة عن الطب العربى من التراجم اللاتينية غير الدقيقة للمؤلفات العربية القياسية . وقد ذكرت لكم فى محاضرة سابقة مثلا من أمثلة النقل السيىء للكلمات العربية إلى لاتينية من الواضح أنها غير مفهومة وسأذكر لكم الآن مثلا آخر . ففى الترجمة اللاتينية « لقانون » ابن سينا المطبوع فى فينيسيا سنة ١٥٤٤ تجدون فى الوجه ١٩٨ أ فى باب أمراض الرأس والعقل قسماً عنوانه **Sermo universalis de Karabito qui est apostema capitis sirsem** فإذا رجعنا إلى العبارة المقابلة لها فى النص العربى (ص٣٠٢)

المطبوع فى روما سنة ١٥٩٣ تجدون هذا المرض الخفى يظهر على أنه (قرانيطس) ولـكن الاسم الصحيح . وهو موجود فى مخطوط قديم حسن حصلت عليه منذ زمن قريب هو (فرانيطس) أى QPEVTris وهو الخبل (جنون خطر) ، وإنه لخلط بالغ ذلك الذى يلحق الحروف العربية إذا ما وضعت النقط أو علامات الترقيم فى غير موضعها ، أما فى حالة هذه الـكلمات اليونانية غير المألوفة فإنه لا يوجد ، إذا لم تـكن الـكلمة مـكتوبة بوضوح . مايرشد الناسخ العربى . فيبدو له أى شكل من أشكالها مفهوماً أو غير مفهوم كأى شكل آخر . ولهذا فعلى من يدرس المؤلفات الطبية العربية أن يبدأ بتصحيح النصوص ومراجعة تحريرها ، حتى ما كان منها مطبوعاً ، قبل أن يستطيع البدء فى قراءتها أو ترجمتها ، وطبعاً ستسبب له الـكتب العديدة الهامة الموجودة فى صورة مخطوطات فقط متاعب أكثر ، حيث إن الرجوع إلى مايزال موجوداً من كتاب « الحاوى للرازى » وهو أهم كتب الطب العربية جميعاً ، كما أنه أضخمها، سيضطره ليس إلى زيارة مكتبة المتحف البريطانى والبودليان وحدها ، بل إن عليه أن يزور مكتبة ميونخ والأسكوريال ، ولن يكون، حتى بعد أن يفعل هذا قد ، اطلع على نصف هذا الـكتاب العظيم . وليس هناك كبير أمل فى أن تنشر طبعات محققة لهذه الـكتب إلا إذا أمـكن تشجيع طلاب الطب فى مصر أو الهند ، الذين لهم ميل إلى البحث ويودون أن يقدموا للعلم الإسلامى خدمة ترفع من شأنه ، بتقديم العون المادى والأدبى لهم على القيام بهذه المهمة الشاقة التى لا ربح من ورائها مع مالها من أهمية . وكمثل على نوع العمل الذى يمكن لمثل هؤلاء الباحثين أن يقوموا به ، أود أن أوجـه النظر إلى الفهرس البديع الذى وضعـه مولوى عظيم الدين أحمد المسمى « فهرس المؤلفات الطبية العربية الموجودة فى المـكتبة الشرقية العمومية فى بانـكيبور (كلـكتا ١٩١٠) ، فهو مؤلف علمى جيد قام

به عظيم الدين بإيعاز من السير أ . د نيسون روس Sir E. Denisen Ross وبإشرافه ، وكان إذ ذاك مديراً للمدرسة المحمدية بكلكتا ، وهو الآن مدير مدرسة الدراسات الشرقية بلندن .

وباستبعاد العناصر الجديدة التي ليست من أصل يوناني ، والتي يمكن أن يكشف عنها البحث الدقيق والدراسة الجادة للطب العربي ، فمن المتيقن فعلا أن كتب جالينوس السبعة في « التشريح » والتي فقدت أصولها ولكنها حُفظت في ترجمتها العربية ونشرت مع ترجمة ألمانية قام بها الدكتور ماكس سيمون سنة ١٩٠٦ ، ليست هي الكتب الطبية القديمة الوحيدة التي يمكن استرجاع مادتها إن لم يمكن استرجاع صيغتها بهذه الطريقة . كما يجب أن نتذكر كذلك أن المترجمين العرب الذين عملوا منذ سنة ١٢٠٠ تقريباً كانوا على صلة حية بتقاليد ترجع من بغداد إلى جند يسابور ومنها إلى Edessa (الرُّحا)[1] وأنطاكية Antioch ثم من هناك إلى الإسكندرية ، وإن هذه التقاليد قد تفيد في إيضاح كثير من النقاط الغامضة في النصوص اليونانية التي لا تزال محفوظة لنا . وأخيراً فإن الملاحظات الإكلينيكية (التي تتضمنها كتب الرازي بصفة خاصة) لها في ذاتها قيمة لا شك أن فيها خير الجزاء للباحثين .

لهذه الأسباب مجتمعة، أراني أجرؤ على الظن بأنها، حتى لو قدرنا أصالة الطب العربي في أدنى درجة، جديرة بأن توجه إليها عناية أعظم ودراسة أكثر تنظيما .

ولن نستطيع أن نتغافل ، ونحن نتأمل علوم العصر الوسيط ، عما يلفت أنظار نافيها من تميزها بخاصتين هما تضامنها وتوقف جميع فروعها على بعضها بعضا، وما لأعداد معينة من هيمنة على مفهوماتها الأساسية . ولم تكن جملة المعارف

---

(١) اسم المدينة بالعربية (المترجم) .

حينئذ من الضخامة بحيث تتحدى قدرة شخص واحد على الاستيعاب ، ونادراً ما كنا نجد طبيباً فى العصر الوسيط يقنع بأن يقصر اهتمامه على العلوم الطبية وحدها ، أو لا يرغب فى أن تشمل دراساته الفلك والتنجيم والموسيقى والرياضة بل والأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة . فالله جل وعلا يقول فى القرآن الكريم (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ، فصلت ٥٣ . وقد شجع هذا كثيرين من المسلمين ذوى الميول الصوفية على البحث عن صلات ليس

بين النجوم والسيارات والأجسام وما شابهها فحسب بل وبين العالم الروحى والعالم المادى . وأتباع مذهب الإسماعيلية الغريب (الباطنية) الذين انبثقت منهم طائفة الحشاشين ذات الشهرة السيئة ، كانوا يوصون المبشرين بمذهبهم بأن يثيروا فضول الذين اتبعوه حديثاً بأسئلة من مثل « لماذا عدد فقرات ظهره اثنتا عشرة ؟ » ، ومثل « لماذا كان لكل أصبع ثلاث عقد إلا الإبهام فله عقدان ؟ » وأشباه هذه الأسئلة . ومن الحقائق التى كانت ذات مغزى بلا حدود أن عدد العقد فى اليدين يساوى عدد الأسنان الدائمة ، وعدد الأيام فى الشهر القمرى ، وعدد الحروف فى الأبجدية العربية . ونلاحظ كذلك أن الأعداد : أربعة وسبعة واثنى عشر لها دور كبير فى نظرية خلق الكون عندهم فمن ذلك الصفات الطبيعية الأربع، وهى الحرارةوالبرودة والجفاف والرطوبة ، والعناصر الأربعة والفصول الأربعة،والأمزجة (الأخلاط) الأربعةوما أشبهذلك. وكذلك السيارات السبع ، والأجواء السبعة ، وأيام الأسبوع السبعة والبحار السبعة ، والبروج الاثنا عشر ، وشهور السنة الاثنا عشر ، وهكذا .

وطبقاً لمفهوم أقدم الأطباء العرب تكون الصفات الطبيعية الأربع هى الأولى بأن تسمى أولية فى الحقيقة لا مااعتدنا تسميتها بالعناصر الأربعة [النار

والهواء والماء والأرض][1]. ويبين هذا بوضوح على بن ربن الطبرى فى الباب الثالث من كتابه « فردوس الحكمة » حيث يقول :

« إن الطبائع البسيطة التى تسمى أولية أربع ، ثنتان منها فعالة وهما الحرارة والبرودة ، وثنتان منفعلتان وهما الرطوبة والجفاف » . والطبائع المركبة أربع أيضاً ، وتدل تسميتها « بالمركبة » على أن الطبائع البسيطة تأتى قبلها حيث إن المركب ينشأ من البسيط . وأولى هذه الطبائع المركبة هى النار ، وهى حارة جافة خفيفة وطاردة فى حركتها ؛ وثانيتها الهواء وهو حار رطب خفيف متحرك فى كل الاتجاهات ؛ وثالثتها الماء وهو بارد رطب ثقيل ويهوى إلى أسفل ؛ والرابعة الأرض وهى باردة جافة ثقيلة وجاذبة . وكل المواد الأرضية تابعة للنار وأحط رتبة منها وتتأثر وتتغير بها . والصفات الطبيعية (الطبائع) أربع لأن العامل يصبح فعالا فقط من خلال الجسم الذى يقع عليه فعله . والعاملان الطبيعيان النشيطان هما الحرارة والبرودة ، ولكل منهما الجسم الملائم الذى يؤثر فيه ، ومن هنا كان عددها أربع » .

وفى الباب التالى يتابع المؤلف بيانه فيقول « وهذه الطبائع متناقضة ومتعادية ، وتكون عداوتها أشد ضراوة إذا نشأت من ناحيتين فى وقت واحد ؛ فالنار مثلا تتناقض بحرارتها وجفافها مع برودة الماء ورطوبته ؛ والهواء يناقض بحرارته ورطوبته برودة الأرض وجفافها . ولكن إذا رجع العداء إلى جانب واحد فقط يكون أقل شدة كما يحدث مثلا فى حالة الهواء الذى يناقض الماء بحرارته ولكنه يتفق معه فى رطوبته . ولهذا جعل الله الهواء عازلا بين الماء والنار ، وجعل الماء حاجزاً بين الأرض والهواء » .

---

(١) المترجم .

ويتبع ذلك رسم يمكن أن يزداد وضوحاً بالرجوع إلى كتاب «التنبيه»[1] للمسعودى المؤرخ والجغرافى العظيم ، الذى كتب مؤلفاته فى منتصف القرن العاشر الميلادى . وفى هـذا الرسم نجد الحرارة مقابلة للبرودة والجفاف مقابلا للرطوبة تكون النقط الأربع الأصلية . ومن اتحاد الحرارة والجفاف فى مختلف مستويات الظواهر الطبيعية أو درجاتها تتكون النار إحدى العناصر الأربعة ، والصيف من الفصول الأربعة ، والجنوب من الجهات الأربع ، والشباب من عصور الإنسان الأربعة ، والمرة الصفراء من الأخلاط الأربعة . وبالمثل من اتحاد الجفاف والبرودة تتكون الأرض ، والخريف ، والغرب ، وعصر النضج ، والمرة السوداء ؛ ويتكون من اتحاد البرودة والرطوبة ، المـاء ، والشتاء ، والشمال ، والشيخوخة ؛ ومن اتحاد الحرارة والرطوبة يتكون الهواء ، والربيع ، والشرق ، والطفولة ، والدم .

والعالم أو الـكون المنظور ، طبقاً لهذا المفهوم ، يشتمل على الأرض أو الفلك الأرضى ، يحيط بها ويغلفها اثنا عشر فلـكا متحديا المركز وهى المائى ، والهوائى ، والنارى ، وأفلاك الـكواكب السبعة التى تبدأ بالقمر والمنتهية بزحل ، ثم فلك النجوم الثوابت ، وخارج كل هذه الدوائر فلك الأفلاك أو الفلك الأطلس (السماوات الخالية من النجوم) والمسمى إمبيريان Emperean عند بطليموس ، ومن ورائها جميعاً طبقاً للرأى الشائع « الخلاء » أو « لاخلاء

(١) والنص العربى، المطبوع فى ليدن سنة ١٨٩٤ ، هو المجلد الثامن من « المكتبة الجغرافية العربية » Bibliotbeca Georaphorum Arabicorum للمرحوم الأستاذ دى جوجى Prob de Goeje . ونشرت ترجمة كارادى فو الفرنسية Caua de Vaux فى باريس سنـة ١٨٩٦ تحت اسم Le Livre de l'Avertissement et de la Revision « كتاب الإشارة والتنبيه » .

ولاملاء » . والمفروض أن خلق الموجودات الأرضية حدث بتزاوج الكواكب السيارة السبعة أو « الآباء السماوية السبعة » والعناصر الأربعة أو « الأمهات الأرضية الأربع » ، ومنه نتجت « سلالة ثلاثية ، أو الممالك المعدنية ، والنباتية ، والحيوانية . ونتجت أولى هذه السلالات فيما بين فلكى الأرض والماء ، والثانية فيما بين فلكى الماء والهواء ، والثالثة فيما بين فلكى الهواء والنار . وعملية التطور من المعدن إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان معترف بها بوضوح ، ونوقشت بإفاضة فى الجزء التاسع من كتاب ديترتش Dieterici[1] الذى استعرض فيه الفلسفة العربية كما كان يعلمها شيوخ العلم فى بغداد فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد والمسمى نظرية دارون فى القرنين التاسع والعاشر Der Darwinismus im Zehnnten und neunzehnten Jahrhundert

بل إن هناك محاولات، فى الكتاب الفارسى «المقالات الأربع» المؤلف فى القرن الثانى عشر والذى سبق لى أن اقتبست بعضه ، للتعرف على « الحلقات المفقودة » ، إذ اعتبر المرجان فى مكان وسط بين المملكتين المعدنية والنباتية ؛ كما اعتبر الكرم ، الذى يحاول تجنب نوع من العشب المتشبث المسمى العاشق والهرب من عناقه القاتل ، فى مكان وسط بين مملكة النبات والحيوان ؛ كما اعتبر النسناس وهو نوع من القردة فى مكان وسط بين الإنسان والحيوان .

والمبادئ العامة التى تكون الأساس للطب العربى هى نتيجة لهذه المفاهيم، والأبواب الأولى من كل كتاب كبير منظم فى الموضوع تتناول فكرة الأمزجة ، والطبائع ، والأخلاط . والمزاج ، وهى الكلمة التى لا تزال مستعملة

---

(١) ليزج ١٨٧٨ .

للدلالة على الصحة فى اللغات العربية والفارسية والتركية ، مشتقة من جذر يعنى « الخلط » وتدل على حالة توازن بين الطبائع الأربع أو الأخـلاط الأربعة ، بحيث ينتج ، إذا اختل هذا التوازن لرجحان واحدة من الطبائع الأربع أو واحد من الأخلاط الأربعة ، اضطراب يسمى انحراف المزاج . ولـكن المزاج العادى الصحى نفسه ليس من الناحية العملية كما ثابتاً، فلـكل إقليم وفصل وعمر وفرد وعضو هيئته الملائمة له الخاصة به . وتوجد تسعة أنواع من الأمزجة وهى المعتدل ولا وجود له من الناحية العملية ، والأمزجة الأربعة البسيطة وهى الحار والبارد والجاف والرطب ، والأربعة المركبة وهى الحار الجاف ، والحار الرطب ، والبارد الجاف ، والبارد الرطب . وباستبعاد حالة الاعتدال التام النادرة ، فـكل إنسان إما أن يكون صفراوى المزاج وهو حار وجاف ، وإما سوداوى المزاج،أى ميلانخولى المزاج وهو بارد وجاف ، وإما بلغمى المزاج وهو بارد ورطب، وإما دموى المزاج وهو حار ورطب. وفى معالجة مرض حار، أو بارد ، أو جاف ، أو رطب بغذاء ، أو دواء يخالفه فى الصفة ، يجب مراعاة هـذه الفطر الغريزية ، والطبيعة الـكامنة فى كل طعام أو دواء موجودة على درجة واحدة من أربع درجات . فمثلا كل مادة حرارتها فى الدرجة الأولى تـكون طعاماً ، فإذا كانت حرارتها فى الدرجة الثانية تـكون غذاء ودواء ، فإذا كانت حرارتها فى الدرجة الثالثة تـكون دواء ولا تـكون غذاء ، فإذا كانت فى الدرجة الرابعة تـكون سماً . ويوجد تقسيم رباعى آخر للمواد التى تؤثر فى جسم الإنسان وهو تقسيمها إلى المواد التى لها تأثير حسن فى الداخل والخارج مثل القمح الذى يـكون فى المعدة غذاء ، ويـكون فى الخارج لبخة «تنضج» الجروح والقروح؛ والمواد التى لها تأثير حسن فى الداخل ولـكن تأثيرها سيئ فى الخارج، كالثوم ، الذى يزيد الحرارة الطبيعية إذا تعوطى داخليا ، ولـكنه يكون ساماً

إذا استعمل من الظاهر ؛ وتلك التى تكون سامة إذا تعوطيت داخليا ، وترياقاً إذا استعملت من الظاهر مثل أكسيد الرصاص Murdasang وخلات النحاس Zangar ؛ وأخيراً المواد السامة سواء استعملت من الظاهر أو تعوطيت من الداخل مثل الأكونيت (وهو نبات البيش) والأرجوت (قرون السنبل) .

وتختص المقالة الثالثة من الكتاب الأول من « الذخيرة » بالبحث فى الأخلاط الأربعة . وتشتمل على ستة أبواب ، أربعة منها تتناول بالدور واحداً من الأخلاط . وواحد (هو الأول) يتناول طبيعتها ، وواحد (هو الأخير) يتناول إنتاجها والتفرقة بينها. والباب الأول قصير جداً حتى إنه ليمكن أن يترجم بأكمله فالمؤلف يقول « إن الأخلاط رطوبة دائرة فى جسم الإنسان ومكانها الطبيعى الأوردة والأعضاء الجوفاء كالمعدة ، والكبد ، والطحال ، والمرارة ، وهى تنتج من الغذاء . وبعض الأخلاط طيب ، وبعضها غير طيب . فالطيب من الأخلاط الذى يغذى جسم الإنسان ويحل محل السوائل التى تصرف . والأخلاط غير الطيبة هى التى يجب أن يتطهر منها الجسم بالأدوية . والأخلاط أربعة هى الدم ، والبلغم ، والمرة الصفراء ، والمرة السوداء . وطبقاً لما ورد فى « الكتاب الملكى » للمجوسى هى الأركان الخاصة القريبة أو الثانوية (الاستقصات) الموجودة بأجسام كافة الحيوانات ذات الدم الحار ، بالمقابلة للأركان البعيدة أو الأولية وهى الأركان العامية ، الأرض ، والهواء ، والنار ، والماء . والأخلاط تتناظر كل واحدة منها مع ركن من الأركان الأولى ، كما أوضحت فيما سلف من قول ، التى منها نشأت ، ولهذا تسمى «بنات الأركان».

ونظرية إنتاج الأخلاط الأربعة وتوزيعها هى باختصار كما يلى : ففى المعدة يجرى للطعام « هضم أول » يتحول به الجزء المغذى منه إلى كيلوس ، ولكن

بجانب الفضلات غير المغذية التى تطرد ، يتحول جزء من الغذاء إلى بلغم وهو يختلف عن الأخلاط الثلاثة الأخرى فى أنه ليس له مكان خاص به كمكان الدم فى الكبد، ومكان المرة الصفراء فى المرارة ، ومكان المرة السوداء فى الطحال. ويحمل الوريد البابى ، وهو الوريد الذى يستقبل أوردة المعدة والماساريقا ، الكيلوس إلى الكبد حيث يجرى له « هضم ثان » حيث يغلى فينقسم إلى ثلاثة أقسام ، رغوة هى المرة الصفراء ، وراسب هو المرة السوداء ، والدم الذى يحتوى على أنفس ما فى الكيلوس من مكونات تركيبه . ويمر الدم بواسطة التجويف الوريدى الأعلى Superior Vena Cava إلى القلب بعد أن يطرد الجزء الأكثر مائية إلى الكليتين لإفرازه ، ومن هناك يوزع بواسطة الشرايين على الأعضاء حيث يحدث له هضم رابع وأخير (فقد حدث الهضم الثالث فى الأوعية الدموية) . وتوجد الأخلاط فى الجسم العادى فى حالة اختلاط ، فيما عدا احتياطيا من المرة الصفراء مختزنا فى المرارة ، واحتياطيا من المرة السوداء فى الطحال ؛ ولكن فصل أى من هذه الأخلاط يمكن تنفيذه باستعمال مواد طبية أو غير ذلك من الوسائل . ومن الممكن أن يكون كل من هذه الأخلاط طبيعياً وعادياً . أو غير طبيعى وشاذاً . والدم العادى نوعان نوع أحمر شديد الحمرة وكثيف يوجد فى الكبد والأوردة ؛ والثانى أكثر رطوبة وحرارة وسيولة، ولونه أحمر ناصع ويوجد فى القلب والشرايين . وقد يصبح الدم غير عادى لمجرد زيادة فى الحرارة أو البرودة أو باختلاطه بما هو زائد على حاجة الجسم من المرة الصفراء أو السوداء أو البلغم . وتعرف للبلغم الخارج عن الطبيعى أربع صفات هى المائية ، والمخاطية ، والزجاجية ، والجيرية ؛ وعرف للمرة الصفراء نفس هذا العدد من الصفات .

وبعد ذلك تأتى ، سواء فى القانون أو فى الذخيرة ، الأقسام التى تتناول التشريح العام والخاص ، والمادة العلمية الخاصة بذلك فى متناول القارئ العادى فى كتاب الدكتور ب. دى كوننج Dr. P. de Koning البديع المسمى « ثلاث صفات للتشريح العربى Trois traités d'Anatomie Arabes .

ويرجع الفضل فى توضيح هذا الفرع من فروع الطب العربى توضيحاً أكثر من غيره من الفروع إلى الدكتور بن كوننج وماكس سيمون Max Simon ، ولهذا من الممكن أن أنتقل إلى الفصول التى تتناول الوظائف أو القوى الطبيعية وهى الفصول التى تتمم ما يمكن أن يسمى الفسيولوجيا العامة لدى الأطباء العرب . وهذه الوظائف أو القوى تنقسم بصفة أولية إلى أجناس ثلاثة ، الطبيعية وتشترك فيها المملكتان الحيوانية والنباتية ، والوظائف الحيوانية وتختص بها المملكة الحيوانية ، والنفسية وبعضها يشترك فيه الإنسان والحيوانات العليا ، بينما البعض الآخر يختص به الإنسان وحده . والوظائف الطبيعية هى الغذائية والتناسلية ، وتتضمن الأولى الجاذبة ، والحافظة (الماسكة) ، والهاضمة ، والطاردة (الدافعة) . والقوى الحيوانية هى الفاعلة المتصلة بظاهرتى التنفس والدورة الدموية ؛ والمنفعلة المتصلة بانعواطف البسيطة كالخوف ، والغضب ، والكره ، وأمثالها المشتركة بين الناس والحيوان . أما القوى النفسية فتشمل القوى المحركة أو الحسية المشتركة بين كل الحيوانات ، كما تشمل كل الوظائف العقلية العليا ، كالتفكير ، والذاكرة ، والمخيلة وأشباهها التى يختص بها الإنسان . ويقابل الحواس الخمس الخارجية وهى الذوق واللمس ، والسمع ، والشم ، والإبصار ، خمس حواس داخلية تقع أولاها وثانيتها وهما الحس المركب والمخيلة فى التجويف الأمامى للمخ ؛ وتقع ثالثتها ورابعتها وهما المختصتان بالتنسيق والعواطف فى المخ

الأوسط ؛ وتقع الحاسة الخامسة وهى الذاكرة فى المخ الخلفى [1] . وفى هـذا الصدد يوجد بين المسميات التى يطلقها الأطباء والتى يستعملها علماء ما وراء الطبيعة لبس يؤكده بصفة خاصة ابن سينا ، منبهاً الأولين وهم الذين كتب « القانون » لهم ، تنبيهاً شـديداً إلى أنه ينبغى أن يكون اهتمامهم بالأفـكار الفلسفية المطلقة أقل من اهتمامهم بما يقع فى متناول تجربتهم الفعلية .

وينبغى لى هنا أن أوجه أنظاركم إلى فقرة جديرة بالاعتبار [2] فى «الـكتاب الملـكى » لعلى بن العباس المجوسى المتوفى سنة ٩٨٢ ميلادية ، فى الوقت الذى ولد فيه ابن سينا تقريباً . وأهم ما تتناوله هذه الفقرة الموجودة فى الباب الذى يعالج الوظائف الحيوانية أو الحيوية الحركتين المتضادتين الانبساط والانقباض ، وهاتان الحركتان تكونان فى القلب والشرايين عمليتى التمدد والتقلص ، وتكونان فى أعضاء التنفس الشهيق والزفير . وتقارن هاتان الحركتان بحركتى المنفاخ فيما عدا أنهما تحدثان نتيجة قوة داخلية لا قوة خارجية ويفترض المؤلف طبعاً أن القلب يجذب الهواء من الرئتين ليخلطه بالدم لتنقية روح الحياة ، كما تقوم الرئتان باستنشاقه من الخارج ، وإن الفضول الدخانية أو الهواء الفاسد يطرد بعملية عكسية ، ويتابع المؤلف كلامه بعد أن أنهى ملاحظاته عن التنفس ، على النحو التالى :

« ويجب عليك أن تعلم أنه فى الوقت الذى يحدث فيه الانبساط ، تقوم الأوعية النابضة كالشرايين مثلا التى تـكون قريبة من القلب بجذب الهواء

---

(١) انظر كتابى «سنة بين الفارسيين » صفحات ١٤٤ ، ١٤٥
Year Amongst the Persians

(٢) الجزء الأول ، صفحتا ١٣٨ ، ١٣٩ من طبعة القاهرة .

والدم المصعد من القلب بحكم الفراغ ، وذلك لأنها تفرغ من الدم والهواء عند حدوث الانقباض ولكن الدم والهواء يعودان إليها عند حدوث الانبساط فتمتلىء بهما . أما الأوعية التى تكون قريبة من الجلد فتجذب الهواء من الجو الخارجى ؛ بينما الأوعية التى تكون واقعة فى مكان وسط بين القلب والجلد فمن خصائصها أن تجذب من الأوعية التى لا تنبض (الأوردة) خير دم وأرقه . ويرجع هذا إلى أن الأوعية غير النابضة (وهى الأوردة) ماهى إلا منافذ متصلة بالأوعية النابضة (الشرايين) . والدليل على ذلك أنه إذا قطع شريان تفرغ الأوردة أيضاً من كل ما بها من دم » .

ويبدو لى أننا بهذا نكون قد حصلنا على فكرة مبدئية واضحة عن الجهاز الشعرى.

ويقابل الأنواع الثلاثة من الوظائف أو القوى ثلاثة أنواع من الأرواح هى الطبيعية ، والحيوانية ، والنفسية ، وتتم تزكية أولها فى الكبد ومن هناك تحملها الأوردة إلى القلب ؛ والثانية فى القلب وتحملها الشرايين السباتية إلى المخ والثالثة فى المخ وتحملها الأعصاب من هناك إلى جميع أجزاء الجسم. ولا يتناول ابن سينا ولا غيره من المؤلفين الذين نقلت عنهم هذه الأرواح وعلاقاتها ببعضها البعض وعلاقتها بالروح الباقية المسلم بوجودها بصفة عامة إلا باختصار. ولقد وجدت أكمل بحث لهذه الأمور وهو يمت إلى الفلسفة وعلم النفس أكثر مما يمت إلى الطب فى كتاب عربى نادر جداً فى نشأة الإنسان وتطوره ألفه أبو الحسن سعيد بن هبة الله طبيب الخليفة المقتدى الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر [1] وهذا الكتاب المسمى « مقالة فى خلق الإنسان » يتناول بصفة خاصة عمليات التناسل والحمل والوضع والنمو والذبول ، ولكن الأبواب العشرة الأخيرة من

---

(١) وتاريخ حياته مذكور فى كتاب « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (الجزء ١ ولا صفحتا ٢٥٤ ، ٢٥٥ من طبعة القاهرة .)

أبوابه الخمسين تتناول علم النفس وتشمل حواراً فى تأييد بقاء الروح بعد الموت ودحض تناسخ الأرواح . فحياة الجسم ، كما يقول هذا المؤلف تتوقف على الروح الحيوانية وتنتهى برحيلها عنه « عن طريق القنوات التى يصل بها الهواء إلى القلب » أى عن طريق الفم وفتحة الأنف . وهذا التصور مجسد فى العبارة العربية المألوفة « مات حتف أنفه » أى مات موتاً طبيعياً ، تتخذ فيه الروح الحيوانية الأنف لا جرحاً من الجروح طريقاً للخلاص . وكذلك عندنا التعبير الفارسى المألوف « جان بارلاب آماداً » ويقصد به الإنسان الذى بلغت روحه شفتيه فهو على حافة الموت .

إن الساعة المخصصة لى تقترب من نهايتها ، وعلى أن أختم هذه الصورة غير الوافية عن الطب العربى التى كان لى عظيم الشرف والسرور بعرضها عليكم . وأرجو أن تكونوا قد وجدتم فيها على الأقل قليلا من المتعة إن لم تكونوا قد أفدتم منها كثيراً من العلم . وقد حفزنى على القيام بهذه المهمة التى أقدمت عليها بكثير من الإشفاق وقليل من الرغبة أستاذى وصديق السير نورمان مور رئيس هذه الكلية ، الذى أنا مدين له بالكثير لتشجيعه لى منذ أيام الطالب فى مستشفى سانت بارتلوميو . على أنى وجدت فى المهمة نفسها خير الجزاء ، ولن يكون الخطأ خطئى إذا ما ألقى بها جانباً بعد أن تحقق الغرض المباشر منها . ولا يزال هذا الفرع من الدراسات العربية فى حاجة إلى مزيد من الجهد أكثر من غيره من الفروع التى تضاهيه فى الأهمية وإلى كثير من العمل الرائد قبل أن يراودنا الأمل فى الوصول إلى النتائج النهائية ذات الأهمية القصوى لتاريخ الفكر العلمى على مدى العصور . وفوق هذا كله تبينت لى وأنا أناجى عقول هؤلاء القدامى من أطباء العرب والفرس ، وحدة العقل البشرى ، ونمت هذه الفكرة فى خاطرى وأصبحت حقيقة تجاوزت حدود الجنس، والزمان والمكان، كما تحقق لدى أصالة ما فى هذه المهنة العظيمة الممثلة فى هذه الكلية من نبل وجلال.

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٦